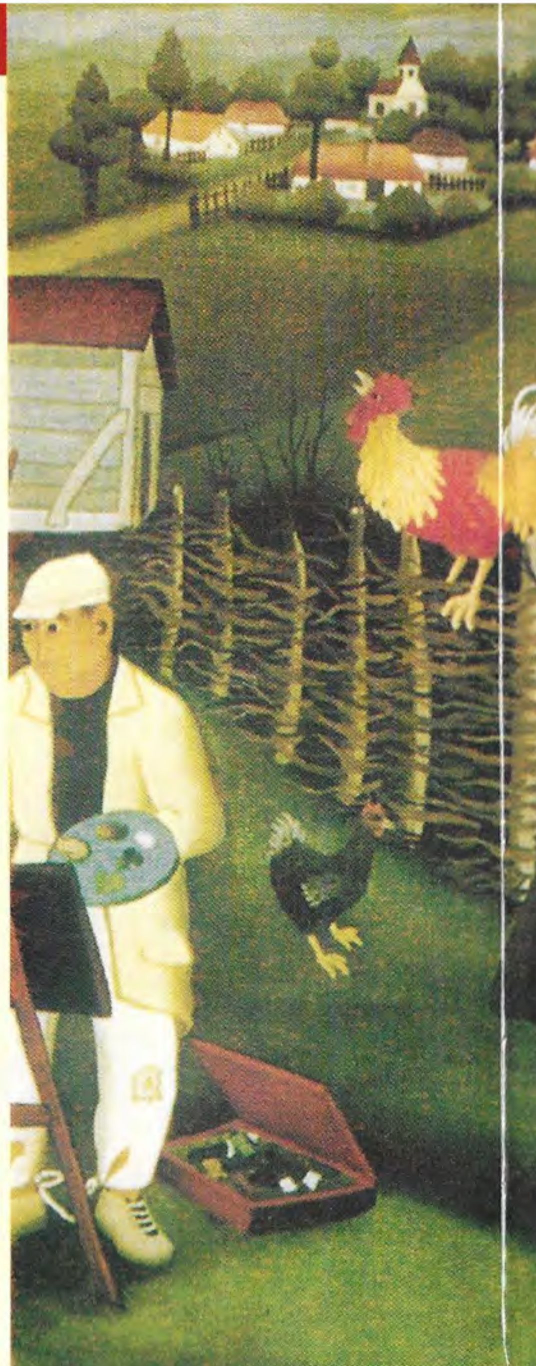
قصص قصيرة من العالم

الوقت لا ينقضي

اختارها وترجمها

بسّام حجّار



المركز الثقافي العربي

الوقت لا ينقضي

الكتاب

الوقت لا ينقضي

اختيار وترجمة

بسّام حجّار

الطبعة

الأولى، 2007

عدد الصفحات: 224

القياس: 14.5 × 21.5

الترقيم الدولي:

ISBN: 9953-68-186-4

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء - المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 2303339 - 2307651

فاكس: 2305726 - 2 212+

Email: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت - لبنان

ص.ب: 5158 - 113 الحمراء

شارع جاندارك - بناية المقدسي

هاتف: 01750507 - 01352826

فاكس: 01343701 - 961+

www.ccaedition.com

Email: cca@ccaedition.com

الوقت لا ينقضي

قصص قصيرة من العالم

اختارها وترجمها:

بسّام حجّار

المركز الثقافي العربي

قصص قصيرة من العالم

تنيسي ويليامز
خورخي لويس بورخيس
بوهوميل هرابال
ريموند كارڤر
دانيلو كيش
ج.م.غ. لوكليزيو
بيوسونغ ـ لنغ
خوان خوسيه ساير
آرڤو فالتون
فاتسلاف هاڤل
سلاڤومير مروجك
ليوناردو شاشا

تنيسي وليامز

I

تنيسي ويليامز كاتب مسرحي أميركي ولد في كولومبوس (ولاية الميسيسيبي) عام 1914 وتوفي عام 1982 .. اشتهر بأعماله المسرحيّة التي لاقت نجاحاً عالمياً نذكر منها: فجأة في الصيف الماضي، حافلة اسمها الرغبة، الزهرة الموشومة، والقطة فوق صفيح ساخن.

اخترنا هنا قصة من مجموعة أعماله القصصيّة الكاملة التي أصدرتها دار لافون في مجلّد واحد عام 1990.

9

الغرفة المظلمة

تنيسي ويليامز

ـ وزوجك يا سيّدة لوكا، منذ متى وهو عاطل عن العمل؟

ـ الله وحده يعرف!

ـ تلزمني إجابة دقيقة، أرجوك.

ـ لا بدّ أنّه على هذه الحالة منذ عام 1930، وربّما أكثر... لقد فُصل من العمل لخراب رأسه. إذ لم يعد يتذكّر شيئاً.

ـ ولم يعمل منذ ذلك الحين؟

ـ لا. إنّه مريض دائماً، رأسه ليس على ما يرام.

ـ أبناؤك؟

ـ أبنائي؟ فرانك وطوني رحلا. فرانك ذهب إلى شيكاغو على ما أظن، لست أدري بالضبط. أمّا طوني فلا يصلح لشيء. والآخران سيلفا ولوسيو، لا يزالان في المدرسة.

ـ في الثانويّة؟

ـ في المدرسة.

حرّكت السيّدة لوكا مكنستها بعزيمة مفاجئة ومررتها تحت طاولة المطبخ. وهكذا عثرت على ملعقة من رصاص، ونتف أوراق وخيط. لمّت الملعقة ووضعتها على الطاولة.

ـ لديك إبنة أيضاً؟ سألت الآنسة مورغان.

ـ أجل، فتاة.

ـ هل تعمل؟

ـ لا، لا تعمل.

ـ اسمها وسنّها من فضلك.

ـ تينا. أمّا سنّها؟ لقد ولدتها قبل سيلفا مباشرة. وسيلفا في الخامسة عشرة.

ـ هذا يعني أنّها تقريباً في السادسة عشرة؟

ـ في السادسة عشرة، بالضبط.

ـ أريد أن أتحدّث إلى ابنتك يا سيّدة لوكا.

ـ تتحدّثين إليها؟

ـ أجل. أين هي؟

ـ هناك، في الداخل. قالت السيّدة لوكا وهي تشير باصبعها إلى باب مغلق. نهضت المرشدة الاجتماعية.

ـ هل بإمكاني أن أراها؟

ـ لا. لا تدخلي. فهي لا تحبّ ذلك.

أبدت الآنسة مورغان اهتماماً ملحوظاً.

ـ لا تحبّ ذلك؟ لماذا؟ هل هي مريضة؟

ـ لا أعلم ما الذي ينتابها، قالت السيدة لوكا، فهي لا تريد أن يدخل أحد إلى هناك أو أن يشعل النّور.

كانت أطراف المكنسة تنفض فضاء الغرفة وتنبش من زاويته عروة كوب مكسور فغمغمت السيّدة لوكا وانحنت لالتقاطها ورمتها في دلو الفحم.

ـ ممّ تعاني يا سيّدة لوكا؟

ـ مَنْ؟ تينا؟ لست أدري.

ـ أصدقيني القول؟ منذ متى وهي على هذه الحال؟

ـ الله وحده يعلم. منذ وقت طويل!

ـ أرجوك يا سيّدة لوكا حاولي أن تكون إجاباتك عن أسئلتي أكثر دقّة. فلا فائدة من إخفاء الأمور.

كانت السيّدة لوكا تبدو على شيء من الارتباك.

ـ منذ متى وهي داخل هذه الغرفة؟ سألت الآنسة مورغان من جديد.

ـ منذ متى؟ منذ ستّة أشهر ربما...

ـ ستة أشهر؟ هل أنت متأكّدة؟

ـ لقد أصبحت غريبة الأطوار بعد رأس السنة. لم يأتِ تلك الليلة. وكانت المرّة الأولى التي لا يأتي فيها منذ وقت طويل. اتصلت به هاتفياً فأجابت أمّه بأنّه غير موجود وطلبت منها ألاّ تتصّل ثانية، وأنّه سيتزوّج يهوديّة.

ـ من هو «هو»؟

ـ الفتى الذي كانت على علاقة به منذ وقت غير قصير. إنّه يهودي واسمه «صول».

ـ وهذا ما دفعها لأن تتصرّف على هذا النحو؟

ـ ربّما. لست أدري. وضعت سمّاعة الهاتف، وجاءت إلى المطبخ وسخّنت بعض الماء. قالت أن معدتها تؤلمها.

وهل كانت صادقة في ما تقول.

ـ لست أدري. ربّما. وذهبت لتنام. ولم تغادر الفراش منذ ذلك الحين.

قرّبت السيّدة لوكا مكنستها بشيء من الخجل ناحية الكرسيّ حيث كانت تجلس المرشدة الاجتماعية. رفعت الآنسة مورغان قدميها بسرعة وبرشاقة، كهرّ يحاول تجنّب نُقْحَةَ ماء. ثمّ أخذت المكنسة الدبقة تتحرّك هنا وهناك، بلا هدف محدد، ناحية الطرف الآخر من الحجرة.

تقصدين أنّها تحبس نفسها هناك منذ ذلك اليوم؟

ـ أجل!

ـ منذ متى؟

ـ منذ رأس السنة.

ـ ستّة أشهر؟

ـ أجل.

ـ ولا تخرج أبداً؟

ـ أحياناً، حين تدخل إلى المرحاض. عندها، بلى، وفيما عدا ذلك، فهي لا تخرج أبداً.

ـ وماذا تفعل في الداخل؟

ـ لست أدري. تظلّ ممدّدة هناك في العتمة. لا تريد أن تخرج. وأحياناً تحدث ضجّة. تبكي، تصرخ، وكلّ شيء. الجيران يتذمّرون. ولكنّها في معظم الأحيان لا تقول شيئاً. تستلقي على السرير ـ ولا تفعل شيئاً.

ـ هل تأكل؟

ـ أجل، أحياناً.

ـ أحياناً؟ تقصدين أنّها لا تأكل بانتظام؟

ـ لا، ليس بانتظام، فقط حين يحضره لها هو.

ـ من هو «هو» يا سيّدة لوكا؟

ـ صول.

ـ صول؟

ـ أجل، صول. الفتى الذي كانت على علاقة به.

ـ تقصدين أنّه يأتي إلى هنا؟

ـ أجل، أحياناً.

ـ لقد قلت إنّه تزوّج من فتاة يهوديّة؟

ـ بلى، لقد تزوّج من اليهوديّة لأنّ العائلة أرادت ذلك.

ـ وعلى رغم ذلك ما زال يأتي ليرى ابنتك؟

ـ أجل، يأتي ليراها. إنّه الوحيد الذي ترضى أن يدخل إلى غرفتها.

ـ يدخل؟ إلى غرفة ابنتك؟

ـ أجل.

ـ وهل تعلم أنّه تزوّج من فتاة أخرى؟

ـ لست أدري. لا يمكنني القول. فهي لا تقول شيئاً.

ـ وما زالت تسمح له بالدخول؟ وبأن يخاطبها؟

ـ إنّها تسمح له بالدخول. ولكنّه لا يكلّمها.

ـ لا يكلّمها؟ إذن ماذا يفعل يا سيّدة لوكا؟

ـ لست أدري. الظلمة شديدة في الداخل. ليس بإمكاني القول. لا يقول شيئاً، إنّه يدخل، وهذا كلّ شيء. يمكث قليلاً ثمّ يخرج.

ـ تقصدين يا سيّدة لوكا أنّك تسمحين لهذا الرجل بأن يمكث مع ابنتك، وفي حالتها هذه؟

ـ أجل، هي تحب أن يفعل ذلك. وبعدها تهدأ قليلاً. وعندما لا يأتي تكون حالتها أسوأ بكثير، ويبدأ الجيران بالصياح؛ عندما يأتي تكون في حالة أفضل فلا تحدث ضجّة. ثمّ هو يحمل معه دائماً بعض الطعام. وهي تأكل كلّ ما يحضره لها.

رسمت المكنسة حركة دائريّة شاسعة وراكمت قاذورات في زاوية.

ـ هكذا أفضل. نوع من المعونة. لسنا أثرياء. ولا نحصل إلاّ على المعونة الاجتماعية وهي ليست كبيرة. أحياناً لا نستطيع حتى...

ـ أمّي، أريد 15 سنتاً؟

كان هذا أحد الصبيين ـ سيلفا أو لوسيو ـ وقد مرّر رأسه من كوة سلم النجاة المفتوحة. وكان أنفه ينزف.

ـ أعطني 15 سنتاً يا أمي! لقد راهنت «جيب» على أنّه ليس أقوى منّي ـ ولكنّه أقوى منّي بالفعل! وقال لي إنّه سيضربني بعد وبشراسة إن لم أعد إليه بالمال!

ـ أغلق فمك! أجابت السيّدة لوكا.

نظر الصبي إلى الآنسة مورغان نظرة خوف وعاد أدراجه هابطاً سلّم النجاة. سمعت في الممر أصوات صراخ وصخب شجار. لم تلتفت الآنسة مورغان ولو للحظة. كانت ساهمة «بالكلّية» عمّا حدث.

ـ أحسب أنّك تعلمين يا سيّدة لوكا بأنّك قد تعتبرين مسؤولة عمّا يحدث؟

ـ مسؤولة؟

سادت لحظات من التوتر الصامت بين الإمرأتين.

ـ لا أهميّة لذلك. منذ متى والأمور تجري على هذا المنوال؟

ـ أيّة أمور؟

ـ بين هذا الرجل وابنتك.

ـ تينا! صول! لا أعلم! الله وحده يعلم.

ـ هذا ليس جواباً يا سيّدة لوكا.

ـ منذ متى تخرج معه؟ منذ أن كانت في الحادية عشرة من عمرها.

ـ لا. أقصد: منذ متى وهذا الرجل يدخل إلى غرفتها بهذه الطريقة؟

حرّكت السيّدة لوكا مكنستها بغيظ ثمّ تابعت سيرها المتعرّج في أرجاء المطبخ.

ـ خمسة أشهر، ستّة أشهر، لا أعلم.

ـ ألم تحاولي أنت أو زوجك أن تمنعاه من ذلك؟

حدّقت السيّدة لوكا في مكنستها وقد ارتسمت على وجهها ملامح استغراق صامت في التفكير.

ـ ألم يحاول زوجك أن يفعل شيئاً يحول دون مجيء هذا الرجل إلى هنا؟

ـ إنّه مريض منذ زمن بعيد.

وضعت السيّدة لوكا اصبعاً على جبينها.

ـ لم يعد بإمكانه أن يفكّر. وأنا عاجزة تماماً. أعمل طوال الوقت. كلّ منّا يفعل ما بوسعه. وليست غلطتنا أن تكون الأمور على ما هي عليه. إنّها مشيئة الله. هذا كّل ما نستطيع قوله يا آنسة مورغان.

ـ لقد فهمت، يا سيّدة لوكا.

بدا صوتها وكأنّه يرسم خط طبشور أبيض في المكان. توقّفت السيّدة لوكا عن تحريك مكنستها وانتظرت. كانت تعلم أنّ لفظ الحكم بات وشيكاً وكانت تتماوج بين الكلمات من دون أن تبدر منها حركة.

ـ يا سيّدة لوكا سيكون علينا أن نأخذ منك ابنتك.

ـ تينا! لن تحبّ ذلك!

ـ أخشى أنّنا لن نستأذنها في هذا الأمر. ولا أنت أيضاً يا سيّدة لوكا.

ـ لا أعتقد بأنها ستقبل... أنت لا تعرفينها؛ إنّها عنيدة. وتصرخ بملء صوتها بأنّ الأمر لا يطاق حين نهمّ بشيء لا ترضى عنه. تصرخ، وتركل وتعض فلا يجرؤ أحد على الاقتراب منها.

ـ سيكون عليها أن تغادر هذا المكان.

ـ آمل أن تقبل بذلك. أجل. صدقاً. إذ لا يعقل أن تظلّ هكذا في العتمة. أعني أنّه أمر سيئ لأشقّائها الصبيان.

ـ الصبيان؟

ـ أجل. سيلفا ولوسيو. إذ من السيئ أن تظلّ ممددة هكذا عارية تماماً في الغرفة.

ـ عارية؟!

ـ أجل. فهي لا تريد أن ترتدي ملابسها.

أغلقت الآنسة مورغان دفتر ملاحظاتها ووضعت غطاء قلمها الحبر.

ـ سوف يأتي من ينقلها صباح الغد، إذ ينبغي أن نضعها تحت المراقبة الطبيّة لفترة طويلة.

ـ آمل أن تذهب ولكنّي لا أعتقد، أو ربّما تذهب معه. . .

ـ معه؟ تقصدين. . .

ـ صول.

ـ صول.

ـ أجل الفتى الذي كانت على علاقة معه لفترة طويلة!

ـ لقد فهمت. . . فهمت!

عاودت المكنسة حركتها البطيئة، إلى الخلف ثمّ إلى الأمام، بلا هدف محدّد. طقّت قشرة بصل يابسة تحت قش المكنسة المتسخ. إلى الخلف، إلى الأمام. وكانت الأرضيّة الرطبة تئزّ.

خورخي لويس بورخيس

II

ولد خورخي لويس بورخيس في بوينس أيرس في الأرجنتين عام 1899. بدأ حياته الأدبية باكراً. في السادسة من عمره، وضع ملخصاً للأساطير الاغريقية، وكتب قصته الأولى «خوذة الموت». انتقل مع أبويه إلى جنيف حيث أقام ما بين 1914 و1920. عام 1921 عادت العائلة إلى العاصمة الأرجنتينية، وهناك، أسس بورخيس مجلة جدارية تدعى «برسيما» ثم مجلة أخرى تدعى «بروا». طبع مجموعته الشعرية الأولى «حميّة بوينس أيرس» (1923)، تبعها «دفتر سان مارتان» (1924)، و«القمر المواجه» (1925). من الشعر، انتقل بورخيس إلى النقد. فنشر في العام 1925، مجموعة مقالات من نوع القصة النقدية تحت عنوان «تحقيقات». ولقد ضمن هذا الكتاب أكثر المواضيع التي ظلت تشغله فيما بعد: طبيعة الأنا، والوقت، وموقفه من القوانين الموضوعية التي تحكم العالم المحسوس. نشر في هذا الاطار أيضاً «مباحثة» (1932) «تاريخ الأبدية» 1936، اضافة إلى محاولات نقدية أخرى، قبل أن ينصرف نهائياً إلى كتابة القصة القصيرة التي امتزجت عنده فيها الأنواع الأدبية كلها. وله في هذا المجال «حديقة الدروب المتشعبة» (1941)، «تخييلات» (1944)، «الألف» (1949)، «الفاعل» (1960)... «كتاب الرمل» (1975)...

استأنف كتابة الشعر فنشر «الرقم» (1981)، و«المتآمرون» (1985). نال جوائز أدبية عدة. احداها جائزة «فوفنتور» التي تقاسمها مع صمويل بيكيت. توفي عام 1986.

النهاية

خورخي لويس بورخيس

فتح ريكا بارين عينيه وهو مستلقٍ على ظهره ورأى سقف القصب المنحرف. كانت تتناهى إلى مسامعه، من الغرفة المجاورة، أنغام عزفٍ رديء على القيثارة؛ نوع من الأصوات البائسة الجوفاء التي تتردد وتتردد إلى ما لا نهاية. وشرع يتذكّر، تدريجاً، حقيقة الأمور اليوميّة التي بات لا يطمح إلى استبدالها بأخرى. نظر من دون إشفاق إلى جسده الناحل وإلى غطاء الصوف العادي الذي كان يغطّي ساقيه. وفي الخارج، خلف قضبان النافذة، كانت تمتدّ البراري والمساء. كان قد غفا ولكن السماء يكتنفها كثير من الضوء. مدّ ذراعه اليسرى متلمّساً حتى تحسس جلجل البرونز على مقربة من سريره النقّال، وحرّكه مرّة أو اثنتين. وكانت الموسيقى لا تزال تترامى من خلف الباب. كان العازف زنجيّاً، ظهر فجأة ذات ليلة يدّعي أنّه مغنّ وتبارى مع غريب آخر في أداء أغنية مصاحبة ثنائيّة. وبعد أن ربح عليه منافسه ظل يرتاد الحانة وكأنّه ينتظر أحداً ما. وكان يعزف على قيثارته لتمضية الوقت ولكنّه لم يعاود الغناء أبداً. فقد تكون هزيمته قد أكسبته مرارة ما. وكان روّاد الحانة قد اعتادوا على هذا الرجل المسالم.

إلاّ أنّ ريكا بارين لن ينسى أبداً ليلة المباراة تلك. ففي اليوم

التالي، وفيما كان يغلّف الشاي، شعر فجأة أنّ النصف الأيسر من جسمه قد أصبح بلا حياة كما فقد قدرته على النطق. ولشدّة ما نشفق على مآسي أبطال الروايات ينتهي بنا الأمر إلى أن نشفق على مآسينا الخاصّة. ولكن على العكس من ذلك، فقد رضخ ريكا بارين الصبور لحقيقة شلله كما سبق له أن قبل طوعاً بمصاعب وعزلات أميركا. فهو المعتاد على أن يحيا الحاضر، كما تفعل الحيوانات، كان ينظر إلى السماء ويفكّر في أنّ الهالة الحمراء التي تحيط بالقمر أمارة على المطر.

جاء ولد ذو سحنة هنديّة (قد يكون ابنه) وفتح الباب. أشار ريكا بارين بعينيه يسأله عمّا إذا كان ثمّة روّاد في الحانة. فأشار إليه الولد، متجهّماً، أن لا. فالزنجي لا يعدّ من الزبائن. وظلّ الرجل الممدد وحده. وظلّت يده اليسرى تداعب الجلجل لبعض الوقت، كما لو أنّها دلالة على سلطته.

كان السهل، في لحظات الغسق الأخيرة، شبه امتداد مجرّد وكأنّه يرى في حلم. انبثقت نقطة من الأفق وأخذت تكبر حتى اتخذت هيئة فارس كان متّجهاً، نحو هذا البيت. رأى ريكا بارين القبّعة الواسعة الأطراف، والبونشو الفضفاض القاتم والحصان الأدهم ولكنّه لم ير وجه الرجل الذي في اقترابه كبح من عدو دابته وبات يتقدّم خببا. وعندما أصبح على مسافة مئة وخمسين متراً تقريباً عدّل من وجهته. لم يعد ريكا بارين يداه ولكنّه سمعه يتكلّم، يترجّل عن صهوة حصانه ويربطه إلى الوتد ويدخل بخطى واثقة إلى الحانة.

ومن دون أن يحيد بنظره عن قيثارته حيث بدا أنّه يبحث عن شيء ما، قال الزنجي بنبرة دقيقة:

ـ كنت أعلم، يا سيّدي، أنّك أهل للثقة.

فأجاب الآخر بصوت فج:

ـ وأنا أيضاً كنت أعلم أنّك كذلك أيّها الخلاسيّ. لقد جعلتك تنتظر بضعة أيّام ولكن ها أنذا أخيراً.

رام صمت. وفي النهاية أردف الزنجيّ قائلاً:

ـ أنا معتاد على الانتظار. لقد انتظرت طوال سبع سنوات.

فأجاب الآخر متمهّلاً:

ـ أمّا أنا فقد مضى عليّ أكثر من سبع سنوات من دون أن أرى أولادي. واليوم رأيتهم ولم أرد أن أبدو لهم بمظهر الرجل الذي يتجوّل حاملاً خنجره بيده.

ـ أفهم ذلك، قال الزنجيّ. آمل أن تكون قد غادرتهم وهم في صحّة جيّدة.

استرسل الغريب الذي جلس إلى المشرب في ضحك صريح من القلب. وطلب كأساً لم يلبث أن احتسى بعضه بتلذذ من دون أن ينهيه.

ـ لقد وجّهت لهم نصائح مفيدة، قال، نصائح صائبة لا تكلّفهم شيئاً. قلت لهم، بين أشياء أخرى، إنّ الإنسان لا ينبغي أن يهدر دم أخيه الإنسان.

وسبق جواب الزنجيّ عزف بطيء على القيثارة:

ـ حسناً فعلت. فبهذه الطريقة لن يكون عليهم أن يشبهونا بشيء.

ـ أن يشبهوني أنا على الأقل، قال الغريب، وأضاف وكأنّه يفكّر بصوت عالٍ: لقد حتم عليّ قدري أن أقتل وها هو الآن يضع الخنجر في يدي من جديد.

ولفته الزنجي كما لو أنّه لم يسمع أقواله:

ـ تقصد النهارات في الخريف.

ـ ما تبقّى من ضوء يكفيني، قال الآخر وهو ينهض.

وقف قبالة الزنجيّ مباشرة وقال له في شيء من الإنهاك:

ـ دع قيثارتك وشأنها، إذ تنتظرك اليوم صحبة ألحانٍ مختلفة.

اتّجه الرجلان نحو الباب. وفيما يهمّ بالخروج أسرّ الزنجيّ في اذن الآخر:

ـ قد يكون حظّي من هذا أشبه بحظّي من ذاك.

فأجابه الآخر بنبرة جادّة:

ـ لقد تدبّرت أمرك في المباراة الأولى. ولكن ما حدث هو أنّك كنت تستعجل الوصول إلى الثانية. ابتعدا قليلاً عن البيوت وهما يسيران جنباً إلى جنب. كان كلّ مكان في البرّية يشبه أيّ مكان آخر وكان القمر ساطعاً. فجأة نظر واحدهما إلى الآخر، توقّفا ونزع الغريب مهمازيه. وكان كلّ منهما قد رفع البونشو الذي يرتديه كاشفاً عن ساعده حين قال الزنجيّ:

ـ أودّ أن أطلب منك شيئاً قبل أن نبدأ. حاول في هذه المبارزة أن تبذل كلّ بأسك وبراعتك كما فعلت، لسبع سنوات خلت، حين قتلت أخي.

ولعلّ مارتن فييرو سمع في تلك اللحظة، وللمرّة الأولى، منذ بداية حوارهما، كلّ الحقد الذي كان يتوقّعه. وأحسّ دمه كالنابض. ثمّ بدأ العراك وغطّى النصل الفولاذيّ وجه الزنجيّ بالندوب.

ثمّة برهات من أوقات العشيّة تهمّ البرّية فيها بقول شيء. ولكنّها لا تقوله أبداً. أو لعلّها تقوله بلا انقطاع ونحن لا نسمعه، أو نسمعه، ولكن هذا الشيء يبدو ممتنعاً على العبارة كالموسيقى.

وهو ممدد على سريره النقّال، رأى ريكا بارين ما حدث. هجم الغريب فتراجع الزنجيّ، وتعثّر وتهدد خصمه وهو يرمقه ثمّ انطلق وأصابه بضربة سكّين في بطنه... ثمّ ضربة ثانية لم يستطع صاحب الحانة أن يراها. لم ينهض فيرو. وظلّ الزنجيّ بلا حراك يراقب احتضاره المضني. مسح سكّينه المدمّى بالعشب النابت وعاد أدراجه متباطئاً إلى الحانة، من دون أن يلتفت وراءه. كان قد أنجز مهمّته كقاض وجلاّد ولم يعد، منذ ذلك الحين، أحداً. بل كان الآخر. لم يعد قدره على الأرض. لقد قتل رجلاً.

مديح العمى

خورخي لويس بورخيس

خلال محاضراتي العديدة ـ العديدة جدّاً ـ لاحظت أنّ المستمعين يؤثرون الخاص على العام، والملموس على المجرّد. لذلك سأتحدّث، بداية، عن عماي الشخصي المتواضع. وأقول فوراً إنّه عمى متواضع، لأنّه كامل في عين واحدة وجزئيّ في العين الثانية. فما زلت أستطيع أن أميّز بعض الألوان كاللون الأخضر والأزرق. وثمّة لون هو الأكثر وفاء لي، إنّه الأصفر. وأذكر طفلاً (ولو كانت شقيقتي هنا لتذكّرت أيضاً)، كنت أقف طويلاً أمام بعض أقفاص حديقة الحيوان في باليرمو، وتلك أقفاص النمر والفهد. كنت أقف طويلاً أمام اللونين الذهبي والأسود في جلد النمر. واليوم أيضاً اللون الأصفر يوافقني. وكتبت قصيدة بعنوان: «ذهب النمور» إحياءً لتلك الصداقة.

لننتقل إلى واقع نجهله عادة ولا أعرف هل هذا الواقع ينطبق على الجميع. يتخيّل الناس أنّ الأعمى رهين عالم من الأسود الدامس. وهناك بيت من الشعر لشكسبير يبرر هذا التصوّر، حين يقول: «ناظراً إلى الظلمة التي يراها العميان». وإذا كان المقصود من الظلمة الأسود الدامس، فهذا البيت لشكسبير ليس صحيحاً على الاطلاق.

إنّ أحد الألوان التي يأسف العميان (أو الأقل الأعمى الذي

يحدّثكم الآن) لأنّهم لا يرونها، هو اللون الأسود، وكذلك الأمر بالنسبة للون الأحمر. «الأحمر والأسود» هما اللونان اللذان نفتقدهما. أنا نفسي معتاداً النوم في ظلمة كاملة، وعانيت كثيراً من اضطراري للنوم في مثل هذا العالم الضبابي، عالم من الضباب الذي يميل إلى الخضرة أو الزرقة والذي يكتنفه بصيص من الضوء، هذا هو عالم العميان. كنت أودّ لو أستريح على سطح العتمة، وأن أستند إليها. أرى الأحمر كأنّه نوع من اللون البني. فعالم الأعمى ليس الليل الذي نفترضه. أتكلّم، على الأقل، باسمي وباسم والدي وجدتي، ماتا هما أيضاً ضريرين مبتسمين وشجاعين، كما آمل أيضاً أن أموت. فواحدنا يرث عدداً من الأشياء (العمى مثلاً. . .) ولكنّه لا يرث الشجاعة، وأعلم أنّهما كانا على قدر كبير من الشجاعة.

يحيا الأعمى في عالم غير مريح. عالم غير واضح تنبثق منه بعض الألوان: وفي حالتي هناك اللون الأصفر واللون الأزرق (لكنّه الأزرق الذي يميل إلى الاخضرار)، وكذلك الأخضر (لكنّه الأخضر الذي يميل إلى الزرقة). الأبيض تلاشى أو يختلط بالرماديّ. أمّا الأحمر فاختفى تماماً ولكنّني آمل ـ فأنا أتبع علاجاً ـ أن يطرأ تحسّن ويصبح في مقدوري أن أرى هذا اللون العظيم، هذا اللون الذي يتألّق في الشعر وله عدد من الأسماء الجميلة في كلّ اللغات. أفكّر في sharlach، بالألمانيّة، وscarlet بالإنكليزيّة، وEscarlata بالإسبانيّة وécarlate بالفرنسيّة. وكلّها كلمات يبدو لي أنّها تليق بهذا اللون العظيم. أمّا الأصفر فله في المقابل هذا الاسم الباهت amarillo بالإسبانيّة وyellow بالإنكليزيّة وهما كلمتان تشبهان amarillo، وأحسب أنّه في الاسبانيّة القديمة كان يقال: amariello.

أحيا في عالم من الألوان وأودّ أن أقول، في البداية، أنّني إذ

تحدّثت عن عماي الشخصي فلأنّه ليس ذلك العمى التام الذي يفكّر فيه الناس، ثمّ لأنّ الأمر يتعلّق بي. إنّ حالتي ليست دراماتيكية بصورة خاصّة. بل إنّ الحالة الدراماتيكية الحقّة حالة أولئك الذين يفقدون البصر فجأة ودفعة واحدة: هنا يبدو الأمر كأنّه فرقعة مفاجئة، أو كسوف. أمّا فيما يعنيني فبدأ هذا المغيب (هذا الفقدان البطيء للبصر) منذ أن أبصرت النور. وتفاقم منذ 1889 دون أي لحظات دراماتيكية، إنّه مغيب طويل دام أكثر من نصف قرن.

للضرورات التي تقتضيها هذه المحاضرة، يتوجّب عليّ أن أجد لحظة مؤثّرة. فلنأخذ اللحظة التي علمت فيها أنّني بتّ فاقداً للبصر، فقدان بصري كقارئ وككاتب. ولم لا نحدد تاريخاً دقيقاً يستحقّ أن نحفظه جميعاً، أي سنة 1955؟ وهنا لا ألمح في كلامي إلى أمطار أيلول الملحميّة بل أشير إلى مناسبة شخصيّة.

لقد حظيت في حياتي بكثير من مناسبات التكريم لشخصي، وهناك مناسبة واحدة أؤثرها على غيرها: إدارة المكتبة الوطنيّة.

تمّ تعييني في هذا المنصب أواخر عام 1955. تسلّمت وسألت عن عدد المجلّدات التي تحتويها المكتبة فقيل لي إنها تقارب المليون. ثمّ لاحظت فيما بعد أنّها تسع مائة ألف مجلّد، وهو عدد أكثر من كاف. (وربّما الرقم تسع مائة ألف يبدو أكثر من الرقم مليون، فالأوّل يستغرق لفظه بعض الوقت بعكس الثاني: يلفظ بسرعة).

وشيئاً فشيئاً تيقّنت من سخرية الأقدار، فلطالما تخيّلت الفردوس على هيئة مكتبة. فيما آخرون يتخيّلون أنّ الفردوس حديقة أو قصر. وكنت هناك، في فردوسي. في وسط تسع مائة ألف كتاب بلغات

مختلفة. ولاحظت أنني لا أكاد أستطيع أن أميّز العناوين. فكتبت عندها «قصيدة الأعطيات» التي أستهلها بما يلي: «ألا لا يذهبن أحد منكم لذرف الدموع أو اللوم/ على ضربات سيد القمر/ الذي في سخريته الرائعة/ أعطاني الكتب والليل معاً». وأعطيتان تتناقضان: كل ما أشتهي من الكتب والليل، أي عدم قدرتي على قراءتها. (. . .)

لم أدع للعمى فرصة أن يرميني في غمار اليأس. وأرسل ناشري ليخبرني أنّني إذا استطعت أن أسلّمه ثلاثين قصيدة في السنة فسوف يصدرها في كتاب. ثلاثون قصيدة في السنة، تعني أن أضع نظاماً للتأليف خاصّة إذا كان عليّ، في حالتي الراهنة، أن أملي كل بيت منها على آخر ليكتبها. ولكنّها أيضاً مهلة تمنحني بعض الحرية، إذ يستحيل أن لا أصادف ثلاثين مناسبة في السنة لكتابة قصيدة. لم يكن العمى لي كارثة لا تعوّض. ولذلك لا يجب أن ننظر إليه بطريقة مؤثّرة. يجب أن نعتبره نمط عيش، إنّه أسلوب في الحياة من بين أساليب أخرى.

أن تكون أعمى، فهذا يعني أيضاً بعض الامتيازات. شخصيّاً أدين للظلّ ببعض الأعطيات: أدين له بمعرفتي الإنكليزية، وبعض الآيسلندية، كما أدين له ببهجة بعض العبارات، وبعض الأبيات وبعدد كبير من القصائد، كما أدين له بتأليف كتاب آخر، عنونته، ليس دون بعض الزيف، وكأنّه تحدّ، «تقريظ الظلال».

أودّ الآن أن أستعيد حالات أخرى، حالات أخرى معروفة. وأبدأ بالمثل البديهي للصداقة وللشعر و. . . والعمى، أبدأ بذاك الذي يعتبر أكبر الشعراء قاطبة: هوميروس. (نعلم أنّ هناك شاعراً يونانياً آخر هو تاميريس، وكان أعمى هو الآخر، مؤلّفاته كلّها ضاعت ولا نعرف شيئاً عنه إلاّ عبر ما كتبه ملتون، ذلك الشهير الأعمى، الذي

يقول إنّ تاميريس هزمته ربات الشعر في مبارزة شفويّة، فكسرت أرغنه وأفقدته البصر).

لقد طرح أوسكار وايلد فرضيّة تثير الفضول على ما أعتقد، وبرغم أنّها غير صحيحة تاريخيّاً فهي تبقى جميلة من الوجهة الفكريّة. فالكتّاب، عامّة، يجهدون أن يظهروا مظهر العمق. وايلد كان رجلاً عميق الفكر وكان يحاول أن يظهر مظهر الإنسان السطحي. إلاّ أنّه كان يريد أن يعتبره الآخرون مجرّد «راوي نكات»، وأن ينظر إليه كما نظر إلى أفلاطون الذي كان يؤمن بأنّ الشعر هو «هذا الشيء الخفيف، المجنّح والمقدّس». إذن، هذا الشيء الخفيف والمجنّح والمقدّس الذي كان أوسكار وايلد يقوله، هو عينه ما جعل العصور القديمة تصوّر هوميروس على هيئة شاعر أعمى، وفعلت ذلك عمداً.

نحن لا نعرف هل وجد هوميروس فعلاً. إذ يكفي أن نعرف أنّ ست مدن مختلفة تتنازع مكان ولادته لكي يتبادر لنا الشكّ في تاريخيّته. ربّما لم يكن هناك هوميروس واحد وإنّما العديد من اليونانيين الذين نخفيهم خلف اسم هوميروس. فالمصنّفات القديمة تجمع على وصفه بأنّه شاعر أعمى. إلاّ أنّ شعر هوميروس شعر بصريّ، وأحياناً يكون بصريّاً في شكل رائع، كما كان، إلى درجة أقلّ طبعاً، شعر أوسكار وايلد.

أيقن وايلد أنّ شعره يفرط في بصريّته وأراد أن يصحّح هذا الخطأ: أراد أن يكتب شعراً سمعيّاً أيضاً، شعراً موسيقياً على غرار ما كتبه تنيسون أوُ فرلين، هذان الشاعران اللذان أحبّهما وأعجب بهما. قال وايلد محدّثاً نفسه: «لقد قال اليونانيون إنّ هوميروس كان أعمى لكي يؤكّدوا أنّ الشعر لا ينبغي أن يكون بصريّاً بل يكون سمعياً». ومن هنا قصيدة «الموسيقى قبل كلّ شيء» لفرلين، ومن

هنا أيضاً رمزيّة وايلد المعاصر.

ربّما لم يكن هوميروس موجوداً ولكن اليونانيين أحبّوا أن يكون أعمى للتأكيد على حقيقة أنّ الشعر، قبل كلّ شيء، موسيقى؛ أنّ الشعر، قبل كلّ شيء، الأرغن؛ وأنّ العنصر البصريّ يمكن أن يوجد في قصيدة الشاعر وقد لا يوجد. أعرف أنّ هناك شعراء كباراً من البصريين وآخرين ليسوا كذلك: بل هم شعراء ذهنيون، عقليون، ومن غير المفيد هنا أن نذكر أسماء.

وإلى ملتون، وهو مثل آخر. ونقول إنّ عماه كان إرادياً. لقد علم منذ البداية أنّه سيصبح شاعراً كبيراً. وثمّة شعراء آخرون كانوا يمتلكون مثل هذا الحدس. فـ «كولدرج» و«دو كوينسي» كانا يعرفان، قبل أن يكتبا بيتاً واحداً، أنّ مصيرهما سيكون للأدب. وأنا أيضاً إذا جاز لي أن أتحدّث عن نفسي. فلطالما أحسست أن مصيري سيكون، قبل كل شيء، للأدب، أي أنّني سأصادف بعض الأمور الجيدة والكثير من الأمور السيئة. ذلك أنّ السعادة ليست في حاجة لأن تموّه: السعادة غاية في ذاتها.

نعود إلى ملتون، لقد أفسد بصره في كتابة كرّاسات دفاعاً عن قرار البرلمان إعدام الملك. وهو يقول إنّه فقد بصره طوعاً دفاعاً عن الحرية. يتحدّث عن هذه المهمّة النبيلة ولا يشكو من عماه: يفكّر أنّه ضحّى بملء إرادته ببصره ويتذكّر رغبته الأولى: الرغبة في أن يكون شاعراً. واكتشف مخطوط في مكتبة جامعة كامبردج يحتوي على عدد من الموضوعات التي فكّر فيها ملتون في شبابه لتأليف قصيدة طويلة.

قال: «أريد أن أترك للأجيال القادمة شيئاً لن تستطيع أن تنساه بسهولة». وكان دوّن عشراً أو خمس عشرة موضوعة. ومن بينها موضوعة دوّنها دون أن يعرف أنّه يفعل ذلك بصورة نبويّة. إنّها

موضوعة شمشوم. فملتون لم يكن يعرف، آنذاك، أنّ مصيره، سيكون، على نحو ما، مشابهاً لمصير شمشوم، الذي في استشرافه لمجيء المسيح في العهد القديم كان يتنبأ بمصير ملتون بطريقة أدق. عندما لاحظ ملتون أنّه أصبح أعمى، شرع في تأليف كتابين تاريخيين: «تاريخ موسكوفيا» و«تاريخ انكلترا»، وبقي الكتابان غير مكتملين. وكذلك قصيدة «الفردوس الضائع» الطويلة. سعى لإيجاد موضوعة تعني كلّ البشر وليس الإنكليز فقط، فوجد موضوعة آدم، أبينا جميعاً.

كان ملتون يقضي معظم أوقاته في عزلة تامة، يؤلّف شعراً ويحفظه فنمت ذاكرته بصورة مدهشة، كان يحفظ أربعين أو خمسين بيتاً ثم يمليها على من يأتي لزيارته. هكذا استطاع أن ينظم قصيدته. كان يتذكّر ويتأمّل في مصير شمشوم، الذي يشبه مصيره هو، لأنّ كرومويل مات وعودة الملكيّة باتت وشيكة. لقد كان ملتون مطلوباً للسلطات ويفترض أن يكون محكوماً بالإعدام لدفاعه عن قرار إعدام الملك. ولكن تشارلز الثاني ـ ابن تشارلز الأوّل الذي أعدم ـ تصرّف بنبل كبير حين جاء من يقدّم له لائحة المحكومين بالموت لتوقيعها، فرفض وقال: «هناك ما يجعل يدي اليمنى ترفض توقيع وثيقة إعدام». وهكذا كتبت النجاة لملتون ولآخرين غيره.

عندئذ كتب «شمشوم الأغونيسي»، لقد أراد أن ينظم تراجيديا يونانية. تدور أحداث المسرحية في يوم واحد، آخر أيام شمشوم، وفوجئ ملتون بتشابه مصيريهما، لأنّه كان، شأن شمشوم، الرجل القوي الذي هزم في النهاية، كان أعمى. وكتب هذه الأبيات التي تكتب في شكل سيئ. بحسب تحقيق لاندور، وينبغي أن تقرأ هكذا: «أعمى في غزّة، على رحى المطحنة، مع العبيد»، إذ كأنّ المآسي كانت تجتمع واحدة تلو الأخرى على كاهلي شمشوم.

ثمّة قصيدة (من اثني عشر بيتاً) يتحدّث فيها ملتون عن عماه. ومن أبياتها واحد من الواضح أنّ الذي كتبه أعمى. عندما يبدأ بوصف العالم يقول ملتون: «في هذا العالم المعتم والشاسع». إنّه، بالضبط، عالم العميان حين يشعرون أنّهم فيه، فرادى يبحثون بأيديهم الممدودة، عن متكأ (. . .)

ذلك الأرستقراطي، من بوسطن، برسكوت أسعفته زوجته. كان تعرّض لحادثة، حين كان طالباً في هارفرد، أفقدته عينا وجعلت الأخرى شبه مطفأة. فقرر حياته للأدب. فانكبّ على الدراسة. وأطلع على آداب انكلترا وفرنسا وإيطاليا واسبانيا. ولقد اهتدى إلى عالمه الحقيقي في اسبانيا الامبراطورية، وهو الذي كان من ألدّ أعداء الجمهورية. وهكذا تحوّل من قارئ نهم إلى كاتب وكان يملي مؤلّفاته على زوجته التي كانت أيضاً تقرأ له. فكتب تاريخ غزو المكسيك والبيرو، وعصور الملوك الكاثوليك وتاريخ فيليب الثاني. فأنجز عملاً سعيداً وشبه تام استغرقه عشرين عاماً.

لنذكر بمثل آخر، مثل جيمس جويس الذي نحسب أنّ أعماله مزدوجة. لدينا عملاه الهائلان، ولنقل، وغير المقروءين «عوليس» و«فينيغانزويك» إلاّ أنّ هاتين الروايتين لا تشكّلان سوى نصف إنتاجه. فالنصف الآخر، وقد يكون الأهم ـ كما يقال اليوم ـ يكمن في اختياره اللغة الانكليزية التي تكاد تكون لا نهاية لها. فهذه اللغة التي تتجاوز ـ إحصائياً ـ كل اللغات والتي توفّر للكاتب الاحتمالات التي لا حصر لها، على الأخص لما يتعلّق بأفعالها الحسية، هذه اللغة إذن، لا تكفيه. لقد فطن جويس، الايرلندي الأصل، أنّ دبلن أنشأها الفايكنغ الدانمركيون. فدرس اللة الدانمركية وكتب رسالة بالدانمركية إلى أبسن ثمّ درس اليونانية واللاتينية. . . درس كلّ اللغات وكتب بلغة ابتكرها بنفسه، لغة يصعب فهمها لكنّها تتميّز بجرس غريب.

أدخل جويس موسيقى جديدة على اللغة الانكليزية. وأعلن بشجاعة (وبكثير من الرياء): «من بين كل الأمور التي حصلت لي، أعتقد أنّ أقلّها أهميّة كوني أصبحت ضريراً». وترك جزءاً من نتاجه الواسع ينضج في الظلّ: صاقلاً العبارات في ذاكرته، ومتردداً في صياغة العبارة الواحدة ليوم كامل قبل أن يكتبها ويعيد تصحيحها. وكلّ هذا في حالة من العمى الكامل، أو في فترات من العمى الكامل. وبصورة مماثلة، كان عجز كل من بوالو وسويفت وكنط وروسكين وجورج مور، وسيلة كئيبة لإنجاز ما أنجزوه. كما في استطاعتنا أن نسوق قولاً مماثلاً حول الشذوذ الذي يحاول المستفيدون منه، اليوم، أن لا تظلّ أسماؤهم في هامش الغفلية. ديمقريطس الابديري فقأ عينيه في حديقة كي لا يتلهّى بمشهد الحقيقة الخارجية.

عددت كثيراً من الحالات. وبعضها من الشهرة بحيث أشعر بالحرج لأنّني تكلّمت، بينها، عن حالتي الشخصية. ولكن الناس يرغبون دائماً في سماع بعض الاعترافات الحميمة وليس لديّ ما يجعلني أرفض لهم هذا (...).

قلت إنّ العمى أسلوب حياة، أسلوب حياة وليس هو التعاسة كلّها. لنتذكّر هذه الأبيات التي كتبها أكبر الشعراء الاسبان، فراي لويس دوليون، والتي تقول:

«أريد أن أحيا مع ذاتي
وأن أتلذذ بما منحتنيه السماء،
وحدي، دون من يشهد عليّ،
طليقاً من الحبّ، من الغيرة،
من الحق، من الأمل، من الهم».

كان إدغار ألن بو يحفظ غيباً أبيات هذا المقطع. لي، الحياة دون

كراهية أمر يسير عليّ إذ لم أختبر هذا الشعور في حياتي. ولكن أن أحيا دون حب، أعتقد أن هذا ما لا يستطيعه أي منا. ولحسن الحظ أنّه أمر مستحيل. ولكن، برغم هذا، في مطلع الأبيات: «أريد أن أحيا مع ذاتي/ أن أتلذذ بما منحتنيه السماء»، فإذا ما أقررنا بأنّ الظل من بين أعطيات السماء، فمن في رأيكم، يستطيع أن يحيا مع ذاته، وأن يعرف نفسه، أو بحسب الكلام السقراطي، أن يعرف ذاته بذاته، أكثر من الأعمى؟ (. . .)

إذا كان الأعمى يفكّر بمثل هذه الطريقة. فهو من الناجين. العمى أعطية. (. . .)

أودّ أن أختم كلامي ببيت من الشعر كتبه غوته. لغتي الألمانية ليست ممتازة ولكن أعتقد أنّني أستطيع أن أجد الكلمات دون أن أرتكب أخطاء فادحة. هذه هي الكلمات: («كلّ ما كان قريباً بعيد»). كتب غوته هذه الكلمات وهو يفكّر في الغروب عند المساء. «كلّ ما كان قريباً يبتعد»، صحيح. فعند غياب الشمس تبتعد الأشياء حتى أقربها إلينا، وتنأى عن عيوننا، تماماً كما ابتعد العالم المرئي عن عينيّ، وربّما إلى الأبد.

كان يسع غوته أن يستلهم غروب الحياة، وليس فقط غروب الشمس، كلّ الأشياء، عندما، تتخلّى عنا، رويداً رويداً. الشيخوخة لا يمكن إلاّ أن تكون أقصى درجات العزلة، أي أنّ أقصى درجات العزلة الموت: «كلّ ما كان قريباً يبتعد». هذا الكلام يعبّر أيضاً عن سيرورة العمى البطيء التي أردت أن أحدّثكم عنها هذا المساء، وأردت أن أقول لكم إنها ليست، تماماً، المأساة، وإنّها ينبغي أن تكون أداة، من أدوات أخرى، يمنّ بها علينا القدر أو نُعطاها بمحض المصادفة.

43

25 آب/أغسطس 1983

خورخي لويس بورخيس

أنبأتني ساعة المحطة الصغيرة أن الوقت جاوز الحادية عشرة ليلاً، فسرت نحو الفندق. وكما في أوقات مشابهة، شعرت بذلك الاحساس الذي هو مزيج من الرضوخ والارتياح اللذين تثيرهما فينا تلك الأماكن التي نعرفها جيداً، كانت البوابة العريضة مشرعة، والبهو غارقاً في الظلمة، دخلت الردهة التي تكرر مراياها الكابية اصص النباتات الموزعة في الصالة. ولسبب أجهله لم يتعرفني المالك وقدم لي السجل. أمسكت بالريشة الموضوعة على الطاولة وأدخلتها في محبرة النحاس وفيما كنت أهمّ بالانحناء فوق السجل المفتوح صادفتني أولى المفاجآت العديدة التي ستطالعني بها هذه الليلة. كان اسمي، خورخي لويس بورخيس، مدوناً هناك، والحبر لم يجفّ بعد.

قال لي مالك الفندق:

«كنت أحسب أنك صعدت إلى غرفتك منذ بعض الوقت».

ثم حدجني بنظرات فاحصة قبل أن يستدرك كلامه:

«أرجو المعذرة يا سيدي. ولكن الآخر يشبهك إلى حد بعيد؛ سوى أنك أصغر سناً».

سألته: «انه يقيم في أي غرفة؟»

ـ لقد طلب الغرفة 19. جاء في جوابه.

ـ هذا ما كنت أخشاه.

وضعت الريشة وهرعت أصعد السلم راكضاً. كانت الغرفة 19 في الطبقة الثانية وتطل على فناء يُعمل على هدمه مسوّرٍ بدرابزين وفيه مقعد عريض للعموم، وكانت أكثر غرف الفندق ارتفاعاً.

فتحت الباب دون مشقة. كانت الثريا لا تزال مضاءة وتحت أنوارها الفاحشة عرفت نفسي. كنت هناك، أراني، من الخلف، مستلقياً على السرير المعدني الضيق، عجوزاً، منهكاً وبالغ الشحوب، وقد زاغت عيناي في تأمل زركشات السقف الطينية. تناهى الصوت الي. لم يكن هو صوتي بالذات، بل الصوت الذي أسمعه دائماً في أحاديثي المسجلة. صوت قاسٍ ورتيب.

«انه لأمر مستغرب ـ قال الصوت ـ نحن اثنان، لكننا لسنا سوى واحد. ولكن، في الحقيقة، ما من شيء مستغرب في الأحلام».

وبشيء من الهلع سألت: «إذاً، ليس هذا كله سوى حلم؟

ـ انه حلمي الأخير؛ اني واثق من ذلك.

وبيده أشار إلى دورقٍ على رخام المنضدة قرب السرير.

«لا بد أنك سترى الكثير من الأحلام، قبل تصل الى هذه الليلة. في أي يوم أصبحت؟

ـ لست أدري على وجه الدقة. اجبته مذهولاً. أعلم فقط أنني بلغت الحادية والستين يوم أمس.

ـ عندما يفضي بك أرقك إلى هذه الليلة تكون قد بلغت، يوم أمس، الرابعة والثمانين. اليوم هو 25 آب 1983.

ـ سيتوجب علي، إذاً، أن أنتظر كل هذه الأعوام، قلت هامساً.

ـ الآن، ما عاد لي شيء، قال بشيء من الغضب، قد أموت في أي لحظة، وأهيم في ما أجهله وما زلت أحلم بقريني، ذلك الحلم المضجر الذي أورثتني إياه مرايا ستيڤنسن».

وأحسست بأن ذكر ستيڤنسن مثابة وداع، وليس مجرد ادعاء معرفة. لقد كنت هو، وأدرك ذلك جيداً. واللحظات المؤثرة لا تكفي لأن يكون واحدنا شكسبير أو لكي يقع على عبارات مأثورة، قلت له، مواسياً:

«كنت أعلم هذا ما ستناله. هنا، في هذا الفندق بالذات، في غرفة من الطبقة السفلى، وكنا شرعنا بتدوين مسودة هذا الانتحار.

ـ بلى، أجابني بنبرة متباطئة كأنه يستجمع ذكرياته. ولكني لا أرى الصلة بين الأمرين، في تلك المسودة، ابتعت تذكرة الذهاب إلى آدروغيه، ووصلت إلى فندق لاس ديليسياس، وصعدت إلى الغرفة 19، وهي الأبعد بين الغرف، وهناك انتحرت.

ـ ولهذا السبب تراني هنا الآن، قلت له.

ـ هنا؟ لكننا هنا لم نغادر. من هنا أحلم بك، في هذه الدارة من شارع مايبو. وهنا احتضر، في هذه الغرفة التي كانت لمار.

ـ التي كانت لِمار، قلت مردداً لا أريد أن أفهم. أنا أريدك في حلمي في الغرفة 19 أكثر الغرف ارتفاعاً.

ـ من يحلم بمن؟ أعلم أنك في حلمي ولكني لا أعلم اذا كنت أنا، بدوري، في حلمك. لقد هدم فندق آدروغيه منذ زمن بعيد، منذ عشرين عاماً وربما ثلاثين، من يدري؟

ـ أنا من يحلم، أجبته بنبرة استفزاز.

ـ ألا ترى أن المهم هو أن نتحقق مما اذا كان أحدنا يحلم، بمفرده، أو اذا كنا نحلم نحن الاثنان في وقت معاً.

ـ أنا اسمي بورخيس؛ لقد رأيت اسمك مدوناً في السجل فهرعت إليك.

ـ بورخيس هو أنا، وأنا من يحتضر الآن في دارة في شارع مايبو».

ران صمت، ثم قال لي الآخر:

ـ «سوف نبرهن على ذلك. ما هي اللحظة الأسوأ التي شهدناها في حياتنا؟»

انحنيت فوقه ورحنا نتكلم في وقت معاً. وأعلم أننا نكذب نحن الاثنان.

تألق وجهه المسن بابتسامة فاترة. وأحسست أن هذه الابتسامة تعكس، على نحو، ابتسامتي.

ـ لقد كذب واحدنا على الآخر، قال لي، لأننا حسبنا أنفسنا اثنين لا واحداً. والحقيقة أننا اثنان ولسنا سوى واحد».

كان هذا الحوار يثير حفيظتي وقلت له ذلك. ثم اردفت قائلاً:

«وانت، في عام 1983، ألا يسعك أن تكشف لي عن السنوات المتبقية من عمري؟

ـ وما عساني أقول لك، ياصديقي البائس بورخيس؟ سوف تتكرر المآسي التي أصبحت معتاداً عليها. وستواصل عيشك هنا في عزلة تامة. ستلمس الكتب البلا حروف، وميدالية سويدنبرغ والصينية الخشب مع الصليب الفيديرالي. العمى ليس عالم الظلمات؛ انه شكل من أشكال العزلة؛ وستعود إلى ايسلندا.

ـ ايسلندا، تقصد ايسلندا البحار!

ـ وفي روما، ستردد أبيات كيتس، الذي كُتِبَ اسمه، على غرار الأسماء قاطبة، على المياه.

ـ لم يسبق لي أن ذهبت إلى روما.

ـ ثم ستكتب أفضل قصائدنا، وستكون مرثية.

ـ مرثية. . .، قلت. ولكني لم أجرؤ على ذكر الاسم.

ـ لا، انها ستحيا من بعد سنوات طويلة».

مكثنا صامتين. وتابع قائلاً:

ـ ستؤلف ذلك الكتاب الذي طالما حلمنا به. ونحو العام 1979، ستدرك أن ما حسبته أعمالك الأدبية ليس سوى مسودات منوعة، وستنقاد إلى الرغبة العابثة والمشؤومة في أن تضع أهم أعمالك، بسبب ذلك التطير الذي زرعه فينا فاوست غوته، أو سالامبو أو عوليس. لقد سودت عدداً لا يحصى من الأوراق.

ـ وفي آخر الأمر أدركت أنك ضللت السبيل.

ـ لا، بل أسوأ من ذلك، لقد أدركت أنه «اثر أدبي»، بالمعنى الأكثر ارباكاً للكلمة، اذ لم تجاوز نواياي الحسنة الصفحات الأولى. وفي الصفحات التي تلتها وضعت المتاهات والسكاكين، والرجل الذي يحسب أنه صورة، والصورة التي تحسب أنها الحقيقة، نمر الليالي، والمعارك التي تستعاد انها في برك من الدماء، وخوان مورانا الأعمى المتطير، وصوت ماسيدونيا، والمركب الذي شيد بأظافر الموتى، واللكنة الانكليزية المستعادة في المساء.

ـ يبدو لي هذا المتحف مما أعرفه، قلت بنبرة ساخرة.

ـ ثم هناك الذكريات المزيفة، وازدواج الرموز، والتعدادات التي

لا تنتهي، وحسن استخدام الابتذال، والتناظرات غير المكتملة التي يكتشفها النقاد بغبطة، والشواهد التي لا تكون دائماً منحولة.

ـ هل نشرت هذا الكتاب؟

ـ لقد راودتني، دون كبير اقتناع مني، الفكرة الميلودرامية المعهودة باتلافه، ربما بواسطة النار، ولكني نشرته، في آخر الأمر، في مدريد، تحت اسم مستعار، وقيل آنذاك أن كاتبه مقلد فظ لبورخيس، وان من أهم سيئاته أنه ليس بورخيس ويكتفي بترداد الأشكال الخارجية لمثاله.

ـ ليس في هذا ما يدعوني إلى الاستهجان، قلت له، فكل كاتب ينتهي به الأمر إلى أن يصبح لنفسه تلميذه الأقل ذكاء.

ـ هل الكتاب كان أحد الدروب التي أفضت بي إلى هذه الليلة. أما الدروب الأخرى... مذلة الشيخوخة، واليقين بأني قد عشت في السابق كل نهار...

ـ لن أكتب هذا الكتاب، قلت له.

ـ بل ستكتبه. فكلامي الذي هو الحاضر، اليوم، لن يكون فيما بعد الا ذاكرة حلم.

أزعجتني نبرته المتعنتة، ولا بد أنها النبرة التي استخدمها في التدريس. وأشعرني تشابهنا الكبير بشيء من الضيق، والامتعاض، كما راعني استغلاله حال المعصومية التي يضيفها عليه دنوّه من الموت ولكي أثأر لنفسي، قلت له:

ـ أنت واثق إذاً من أنك ستموت؟

ـ أجل، أجابني، بتُّ استشعر تلك الرقة وذلك الارتياح اللذين لم أعرفهمنا من قبل. لا يسعني أن أفسر لك ذلك. كل الكلمات

تعبر عن تجارب متبادلة، ولكن لماذا يُسقمك ما أقول؟

ـ لأننا نتشابه كثيراً، أمقت وجهك الذي هو رسم مضحك لوجهي، أمقت أسلوبك المؤثر لأنه أسلوبي أنا أيضاً.

ـ وأنا أيضاً، قال الآخر، ولهذا السبب عزمت على الانتحار.

في الخارج غرّد عصفور

«انه الأخير، قال الآخر».

وباشارة من يده، دعاني للاقتراب منه. سعت يده للامساك بيدي. تراجعت قليلاً، خشية أن تمتزج يدانا.

وقال لي:

«يعلمنا الرواقيون أنه ينبغي ألا نبدي شكوانا من الحياة، فباب السجن مفتوح. ولطالما أدركت ذلك ولكن الكسل والجبن أعاقاني، منذ بضعة أيام كنت ألقي في لابلاتا محاضرة حول الكتاب السادس من الانياذة، وفجأة، فيما كنت ألقي بيتاً من الشعر سداسي المقاطع. أدركت طريقي. واتخذت قراري، ومنذ تلك اللحظة بت أشعر بأنني كائن لا يطول اليه الأذى. ان مصيري سيكون مصيرك. سوف يهبط عليك الوحي فجأة، في منتصف درس اللاتيني وڤيرجيل، وتكون نسيت اذ ذاك هذا الحوار التنبؤي الغريب الذي يجري في زمنين، وفي مكانين مختلفين. وحين ستحلم به مجدداً، ستكون ما أنا عليه الآن وستكون حلمي.

ـ لن أنسى هذا على الاطلاق وسأدونه منذ صباح الغد.

ـ سيمكث في أعماق ذاكرتك تحت أنواء الأحلام. وعندما ستكتبه، ستحسب أنك تولّد حكاية خرافية. ولكن ذلك لن يكون غداً، ما زالت أمامك أعوام طويلة.

كفَّ عن الكلام وأدركت أنه مات. وعلى نحو ما، كنت أموت معه. فدنوت قلقاً من الوسادة، ولكني لم أجد أحداً.

غادرت الغرفة راكضاً وفي الخارج لم أعثر على الردهة ولا سلالم الرخام ولا الدارة الكبيرة الساكنة، ولا نباتات الاوكاليبثوس، ولا التماثيل، ولا المعرشات ولا النوافير ولا السياج الذي يسور الدارة في مدينة آدروغيه.

في الخارج. كانت أحلام أخرى في انتظاري.

بوهوميل هرابال

III

بوهوميل هرابال أبرز الروائيين التشيكيين (مواليد برنو عام 1914)، له أكثر من اربعين مؤلفاً بين الرواية والقصة والنقد الأدبي والريبورتاج. وترجمت معظم هذه الأعمال إلى عدد من اللغات. يعتبره النقاد في أوروبا وارث «السليقة الحكائية» لرائدي الرواية في أوروبا الوسطى: لاديسلاف كليما وياروسلاف هازك.

منحته وزارة الثقافة الفرنسية وسام جوقة الشرف تكريماً له وتقديراً لأعماله التي تصدر ترجمتها الفرنسية تباعاً.

اخترنا من الترجمة الفرنسية لمجموعته القصصية الصادرة حديثاً بعنوان: «المتشدّقون»، هذا النص الذي يجمع عناصر الكتابة لدى هرابال ومصادر استلهاماته.

من أعماله الأخرى: «قطارات تحت الحراسة المشدّدة» (صدرت ترجمتها العربيّة عن دار الفارابي في بيروت عام 1990)، «عزلة بمثل هذا الصخب»، «أنا من خدم ملك انكلترا»، «البلدة التي توقّف فيها الزمن»، و«أعراس في الدار: ثلاثية الذكريات» و«آلام ورثر العجوز». توفي عام 1997.

دليل الراغب المتشدّق

بوهوميل هرابال

أنا عاشق الشمس في مطاعم الهواء الطلق، شارب الضياء القمري على الأرصفة المبلّلة، أمشي مُستقيماً منتصب القامة فيما زوجتي في البيت، وبرغم طبعها القنوع، تترنّح ولا تني تُخطئ مرادها في كلّ ما تصنعه، وتأويل «بانثاراي» لهرقليطس الهزليّ، يتدفّق من حنجرتي وكل نُزل في العالم هو قطيع أيائل أسرتها أدغال اللغة، وتلك الآية الكبيرة «تذكّر أيها الفاني» التي تتكشف عنها الأشياء والأقدار البشرية، ما يكفي لشرابٍ متواصلٍ إلى الأبد، لذلك أكون وثوقيّاً سائلاً، تحركني نظرية السنديان والقصب، أنا صرخة آدمية راعبة يبددها ثقل نديفة ثلج، أهرع باستمرار لأمكث ساعتين أو ثلاثاً في أحلام يقظتي الناشطة لقلة نشاطها، ذلك أني أدرك جيداً أن حياة البشر تنزلق كما تخلط أوراق اللعب، وأنه ربما كان الأجدر أن أُغسل وأن يُرمى بي مُلتفاً بمنديل، أحياناً أبدو كمن يرجو الفوز بالجائزة الكبرى، في حين أعلم جيّداً انني في آخر الأمر سوف أنال صفراً مُقهقهاً وأنّ كل هذا المنفاخ كان في الأصل نقطة بذار ومآله طقطقة النيران، وبعد بدايات رائعة أنتهي بشكل رائع، إذ يحدث أحياناً أن يُغرم واحدنا بوجه لطيف دون أن يفطن أنّ خلف الوجه تختبئ عناكب الحقل، أسقي الورود حين تُمطر وفي قيظ تموز

أجرجر خلفي زلاّقة الأشهر الشتوية، ولكي أبترد في أيام الصيفة القائظة أشرب فضلة الفحم لنيران الشتاء، ولا تراني إلا مذهولاً لرؤيتي الناس لا يُذهلون لقصر الأجل، وللقليل من الوقت المتبقي للشرب حتى الثمالة واقتراف الحماقات ما دامت الثمالة والحماقات في المستطاع بعد، وخدر الفكين في الصباح أحياه كطراز هو، وإن كان عوض نقصان، القيمة المطلقة لصدمةٍ شاعرية بنكهة التنافر الذي ينبغي أن يُستحسن طعمه كما تُستحسن نوبة الكبد المقدّسة، أنا شجرة أثيثة الأوراق، وكياني عينان في دوام التيقظ والابتسام، في حالة النعمى المستديمة ومثلي مثل الآلات المُقرنة بالمصادفات والحوادث، وأي لذة لأرومةٍ عتيقة أن تفرّخ الأماليد، وأي لذة ضحكة الوريقة التي أينعت للتو، مناخي هو التقلب في طقس نيسان، ومن دثار مُلطّخ أرفع رايتي في الظل المتهدل الذي منه أحيا ذلك المرح المغتبط، ولكن منه أيضاً تلك الحلقة المتواصلة من الموت والانبعاث، ذلك الألم الخفيف في العنق، وتلك الرعدة المستقبحة في اليدين، بأسناني أنتزع من أبصاري التماعات الزجاج وأخيلة التأرق في الليلة المنصرمة، وكل صباح أسأل نفسي إن كنت سأقضي قبل أن أستنفد جنوني ما شئت أن أجن، فأنا لا أراني سبحة بل حلقة في سلسلة من الضحك المحنّك، وأرقُّ شجرة فستق بري تحد مخيلتي المتلاف، ثمة ما هو خصيّ فيّ، ثمة ما هو موجود ويغور في الوقت نفسه في الزمن الماضي لكي يُقذف بروية منجنيق نصف دائرية نحو المستقبل، فيمتنع إذ ذاك على لساني وعلى عينيّ الشرهتين، حتى أن معدن ايزلندا المتبلر إذ يعكس الصورة المزدوجة يجعلني مصاباً بالحَوَل، اليوم، هو الأمس أو بعد غد، لذا أراني صانع أحكام اصطناعية متسرعة، ذائق، لا بل ذوّاقة، الحيّز المفذلك، داعية تصلُّب، اللوثة كما هذر الأطفال في عُرفي بداية

اكتشافات ممكنة، ولي هوى اللعب يجعلني قادراً في لهوي على تبديل وادي الدموع ضحكاً، أطرد الواقع بالتعزيم ولا يستجيب دائماً لتعزيمي، أنا أيل حرون في روضة انتظار صفيق، أنا جرس من البرونز فلعه برق الانتظار وبرق الطبيعة الموضوعية والعلوم الاجتماعية، أنا عبقري السالب، صياد محرمات في خزين اللغة، حارس غابات له استيحاء الهزل، وحارس محلّف في حقول الدعابة الغفل، قاتل الأفكار الألمعية، حارس أحواض العفوية المشبوهة، بَطَلُ الجهل المفكّر، شابك المتوازيات قبل أوانها، مُتعجّلٌ، كمن يريد أن يأكل بقضمة واحدة فطيرة اللامنتهي وأن يشرب جرعةً واحدة زبد الخلود في كأس، على الفور وليس فيما بعد ولا أجد سحر النصوص الرعوية في التأويل الخاطئ لأقوال المسيح، وزينتي شظايا الجليد الجارحة على ضفة جدول شتوي، أنا انهيار عصبي واكتئاب وكلبٌ رابض، وان تهيّأت لأن أضرب الحائط برأسي فليس ذلك إلاّ من قبيل إرجاء المحاولة دوماً لكي يُتاح لي التثبّت من احتمال العيش بطريقة أخرى لم أعشها من قبل، أنا المنهكُ عصبياً ذو العافية، الأرِق الذي لا يستغرق في نوم عميق إلاّ في حافلة النقل إذ أجدني دائماً في نهاية الخط، أنا الحاضر الهائل للانتظارات الصغيرة، للضربات الموجعة والنشازات الأخرى المرتقبة، ففي الأفق المضحك تغمزُ لعيني آفاق أخرى من الاستفزازات والفضائح الطفيفة، ولذلك أنا مهرّج، ألعبان، حكواتي، ممثل ومشاهد، كما أني لذاتي المخرّب الكبير، دسّاس وغراب، ولي الأخبار النافلة بدايات ممكنة لتكويني الذي أبدّل في تكوينه دون توقف، فلا أنجزه، وفي رسمة ظل ليس منها إلا التباشير أرى عمارة هائلة وإن كانت في الحقيقة ليست سوى ضريح طفل تهدّم منذ زمن بعيد، أنا رجل يشيخُ بحمل الصبا، الإيماءة واللغة هما نحو رطانتي الداخلية

وصرفها، قطعة باتيه ساخنة وكأس جعة يُبرهنان، في غضون نصف ساعة، عملية استحالة المادة الى مزاج رائق، أي تحوّل عادي هو أوّل المعجزات على الأرض، وكفّي التي ألقيها على كتف صديق هني لي حفنة أبواب مُشرعة على الغبطة حيث كّل محبوب هو مركز الفردوس، الآدمية نهج عجول بلا كاهن أو إجازة، عيون بقرية كئيبة تعبر، جاحظةً بالفضول فوق جنبات شاحنة، إنها عيناي، بقرة فتية ينتظرها القصابون بسكاكينهم اللامعة، ها أنذا قُرقُفٌ بجناحين مقلوبين يضخّه غروب شتوي في دلوِ ماء بارد، ها أنذا أيضاً، شعلة تعود إليها النحلات الوفيّة لتحترق مع شقيقاتها في قفير مشتعل، الأمر الذي قد يكون في اعتقادي، نواة التصوّر الأمثل لقالب عسل يحترق، مصنوع لأجلي وحدي، أنا إذاً عضو ملائم في أكادمية التشدّق، محاضرٌ في فرع الغبطة، ديونيزوس، الفتى العذب والثمل، المرحُ استحال رجلاً، هو إلهي، وسقراط الساخر، الذي يخوض الحوار مع الآخر ليصل به، من اللسان، من طرف اللسان، إلى عتبة المعرفة بجهله، هو راعي كنيستي، وياروسلاف هازك هو ابنها البكر، هو الذي ابتكر وعايش في نبوغ ودوّن تاريخ الحانة، هو الذي أنْسَن سموات النثر بلغة البشر، تاركاً الكتابة لآخرين، ثابت النظرات أحدّق في الأجفان الزرقاء لهذا الثالوث المقدّس دون أن أصل إلى ذروة الفراغ، السُكْر دون كحول، الثقافة دون علم، أنا ثور منزوف للضحك، يؤكل دماغه بملعقة صغيرة، كما تؤكل المثلّجات.

أيها النادل، ألم يتبقّ لديك شيء من الغولاش؟

تنبيــه:

عندما انكبّ على تحليل هذا النص الذي استغرقتني كتابته خمس ساعات من التدوين المتقطع وغير المنتظم وكنت في الأثناء أقطع الخشب وأسوّي عشب حديقتي، هذا النص الذي كتب على وتائر بطيئة للفأس العمودية والحركة الأفقية للمنشار النمسوي، عندما انكبّ عليه اذا يعوزني التمييز بين العبارات التي تلخّص تجربتي الذاتية وتلك التي اكتسبتها من قراءاتي المختلفة. لذلك ينبغي أن أذكر المؤلفين والعبارات التي ما زالت تغويني منذ أن قرأتها حتى أنني أشعر بالأسف أحياناً لأنني لم أعثر عليها أنا نفسي: «فأنا لا أراني سبحة بل حلقة من سلسلة الضحك المحنّك»، عبارة محرّفة قليلاً لقول نيتشه: «لست حلقة في سلسلة بل السلسلة نفسها» وعبارة «كل محبوب هو مركز الفردوس» مُستعارة حرفياً من «نوڤاليس» أمّا «ديونيزوس، المرحُ استحال رجلاً» فهي عبارة لـ هردر.

وهذا كلّ شيء.

ريموند كارڤر

IV

ريموند كارڤر (1939 - 1988)، نشرت قصصه العديدة في ملحق النيويوركر، ورأى فيه النقاد أحد كبار «القصة القصيرة» وبدا تأثيره واضحاً على جيل كامل من الكتّاب الاميركيين الشبان. كتب كارڤر عن المشرّدين والبؤساء والهامشيين الذين عرفهم عن كثب في تنقّله بين عدد من المهن التي زاولها لكسب عيشه: (عامل في محطة وقود، حارس ليلي وسائق شاحنات كبيرة...).

توفي عام 1988 بعد صراع طويل مع مرض عضال وله: «حدّثني عن الحب»، «أصمت، أرجوك»، و«فيتامينات السعادة». وهذه القصة هي احدى قصص مجموعته الأخيرة التي تحمل نفس العنوان: «ثلاث زهرات صفر».

ثلاث زهرات صُفْر

ريموند كارڤر

بادنفايلر هي منتجع حمامات معدنية صغير تقع على الطرف الغربي للغابة السوداء على مسافة غير بعيدة من بال. ومنها، من أي موضع من أرجاء المدينة، تبدو امتدادات الڤوج بوضوح، والهواء، في مثل ذلك الوقت من أوقات السنة ينسّم صافياً ومنعشاً. ولطالما كان لهذا المنتجع الجبلي زوّاره الأوفياء من الروس الذين يرتادونه دوريّاً للتمتع بمياهه وفسحاته. وفي حزيران عام 1904 قدم إليه «تشيخوف» لقضاء أيّامه الأخيرة.

كان في الأيام الأولى من ذاك الشهر، قد قام بالرحلة المضنية في القطار بين موسكو وبرلين. وكان يسافر برفقة زوجته، الممثّلة «أولغا كنيبر»، التي التقاها لأوّل مرّة في العام /1898/ أثناء التدريبات على مسرحية «طائر النورس». وكان الكتّاب في تلك الحقبة يصفونها بأنّها ممثلة من الدرجة الأولى. كانت جميلة وموهوبة وتصغر المؤلف المسرحي بعشرة أعوام. وقد لفتت انتباه «تشيخوف» من النظرة الأولى إلاّ أنّه كان شديد البطء في التعبير عن مشاعره. فهو، على جاري عادته، يؤثر المغازلة على الزواج. وفي ختام مرحلة من الإعجاب والغزل دامت ثلاث سنوات وتخللها الكثير من مواقف الجفاء والرسائل والخلافات الحتمية، صمّم أخيراً على الزواج منها

وتمّ لهما ذلك في 25 أيار 1901 بموسكو خلال حفل اقتصر على المقرّبين. كان «تشيخوف» في ذروة سعادته. وكان يخاطب «أولغا» بعبارة «يا مهرتي الصغيرة» أو أحياناً «يا كلبي الصغير». كما كان يسرّ أيضاً بأن يناديها: «يا ديكي الرومي» أو ببساطة، «يا بهجتي».

في برلين قصد «تشيخوف» أحد الأطباء الاخصائيين بمرض السلّ هو البروفسور الشهير «كارل إيڤالد». وحسب ما قاله شاهد عيان إنّ الطبيب بعد معاينة «تشيخوف» رفع ذراعيه مبتهلاً إلى السماء وغادر الحجرة دون أن يتفوّه بكلمة واحدة. فقد كانت حالة «تشيخوف» مستعصية على أيّ نوع من العلاج: وكان الدكتور «إيڤالد» يلوم نفسه لأنّه عاجز عن اجتراح المعجزات، ويلوم «تشيخوف» لشدّة مرضه.

وفي برقية أرسلها صحفي روسي إلى رئيس تحرير مجلّته بعد أن جاء لزيارة الزوجين «تشيخوف» في فندقهما، كتب يقول: «لقد أيقنت أنّ أيّام تشيخوف باتت معدودة. فقد بدا لي شديد المرض: هزيل ويسعل كأنّه يسابق أنفاسه لأدنى حركة ولا تفارقه الحرارة المرتفعة». وهذا الصحفي نفسه رافق «تشيخوف» و«أولغا» إلى محطة بوتسدام عندما استقلاّ القطار الذي أوصلهما إلى بادنڤايلر. فكتب: «كان تشيخوف يجد صعوبة بالغة في صعود درج المحطة الصغير. وجلس لبضع قائق محاولاً استرداد أنفاسه». وبالفعل، فقد كان «تشيخوف» يتألّم في كلّ خطوة من خطواته: ويشعر بوخز في ساقيه وأوجاع في أحشائه، فقد تفشّى السلّ في جسده حتّى الأمعاء والنخاع الشوكي. ولم يكن أمامه، في ذلك الوقت سوى شهر واحد ليحياه. وكان حين يذكر حالته في كلامه، على ما تقوله «أولغا»، «فبطلاقة تكاد توازي الغيبوبة». كان الدكتور «شڤورر» واحداً من أطباء بادنڤايلر العديدين الذين يتمتعون بحياة رخاء لإشرافهم على

علاج الميسورين الذين يأتون سعياً للتخفّف من أوجاعهم المختلفة. وبعض هؤلاء كان مريضاً ومقعداً بالفعل أمّا بعضهم الآخر فكان لا يعاني إلاّ من الشيخوخة ومرض الخوف من المرض. إلاّ أن «تشيخوف» كان يمثل حالة على حدة: فحالته مستعصية وواضح أنّه كان يحيا أيّامه الأخيرة. هذا بالإضافة إلى كونه أحد مشاهير تلك الحقبة. وحتّى الدكتور «شفْورر» كان يعرف اسمه وقرأ عدداً من قصصه المنشورة في إحدى المجلاّت الألمانية. وحين عاين الكاتب، في الأسبوع الأوّل من حزيران، أسرّ إليه بمقدار إعجابه بكتاباته، ولكنّه، في المقابل، احتفظ بنتائج التشخيص لنفسه، واكتفى بأن وصف له حميّة ملائمة: كاكاو، وحساء الشعير مع كثير من الزبدة والشاي بالفراولة، الذي من شأنه أن يسهل نوم المريض.

في 13 حزيران، أي قبل وفاته بثلاثة أسابيع، كتب «تشيخوف» رسالة إلى والدته يطلعها فيها على تحسّن في حالته الصحّية: «الأرجح أنني سأتماثل للشفاء خلال أسبوع واحد». ما الذي دفعه إلى كتابة مثل هذا الكلام؟ وهل نستطيع أن نعرف ما الذي يراود أفكاره فعلاً؟ فلا يعقل، وهو نفسه طبيب، أن يكون جاهلاً لحقيقة وضعه الصحيّ. كان مشرفاً على الموت، ببساطة ولا سبيل لمغالبة المحتوم. ومع ذلك، كان يمكث على شرفة غرفته في الفندق لساعات وساعات وهو يدقق في مواقيت السكّة الحديد، ويطلب أن يتمّ إبلاغه بمواقيت إبحار السفن التي تقوم بالرحلات البحرية بين مرسيليا وأدويسّا. لكنّه كان يعلم. لا بدّ أنّه كان يعلم في مثل حالته المستعصية. ومع ذلك كان يؤكد، في إحدى رسائله الأخيرة إلى شقيقته أنّه يتعافى بسرعة لم يكن يتوقّعها.

في ذلك الوقت كانت قد جافته، ومنذ وقت طويل، أي رغبة في

الكتابة، حتّى أنّه، لسنة خلت، كان على وشك التخلّي عن إنجاز «بستان الكرز». فقد كان تأليف هذه المسرحية إحدى أصعب التجارب وأشقاها في حياته الأدبيّة. وحين لم يبق عليه إلاّ أن ينجز الخاتمة كان لا يستطيع أن يكتب أكثر من خمسة أو ستة أسطر في اليوم. وكتب آنذاك في رسالة إلى «أولغا»: «باتت تنقصني الجرأة. ويبدو لي أنّ زمني ككاتب قد ولّى فكلّ عبارة أدوّنها تبدو لي بائسة ولا طائل فيها». ومع ذلك ثابر على الكتابة. وأنهى كتابة «بستان الكرز» في شهر تشرين الأوّل عام 1903 ولم يكتب بعدها أيّ شيء باستثناء بعض الرسائل وحفنة ملاحظات في كرّاساته الخاصة.

في 2 تموز 1904، بعد انتصاف الليل بقليل، أرسلت «أولغا» بطلب الدكتور «شفورر» على جناح السرعة: فقد كان «تشيخوف» يهذي. وشاءت المصادفات أن تكون الغرفة المجاورة لطالبين روسيين في إجازة، فهرعت «أولغا» لتشرح لهما الوضع. كان أحد الطالبين غارقاً في نومه أمّا الآخر فلا يزال صاحياً. كان يقرأ وهو يدخّن غليوناً. فغادر الفندق مسرعاً لإحضار الطبيب. «ما زلت أسمع صدى خطاه وهي تبتعد على الحصى الذي يحدث صريفاً في صمت تلك الليلة الخانقة من ليالي شهر تمّوز»، ستكتب «أولغا» في مذكراتها. كان «تشيخوف» غارقاً في هذيانه. يتحدّث عن بحّارة مجهولين، ويغمغم عبارات مشوّشة يتردّد فيها ذكر اليابانيين. ولكن حين أرادت «أولغا» أن تضع جراباً من الثلج فوق صدره صرخ بها قائلاً: «لا! إيّاك والثلج على بطن طاو!».

دخل الدكتور «شفورر» وأخرج أدواته من الحقيبة دون أن تغفل عيناه عن «تشيخوف» الذي يرقد لاهثاً في السرير. كان تنفّس المريض متقطعاً وحدقتاه متّسعتين. وكان صدغاه يتصبّبان عرقاً. ظلّت ملامح

الطبيب مغلقة لا تشي بأي انفعال ذلك أنّ التأثّر لم يكن من طباعه ولكنّه أيقن أنّ أجل «تشيخوف» قد حان. إلاّ أنّه كطبيب أدّى القسم الذي يحتّم عليه أن يفعل كلّ ما بوسعه، حاول المستحيل خاصّة وأنّ «تشيخوف» كان لا يزال حيّاً ولو أن الخيط الذي يربطه بالحياة أصبح واهناً. هيّأ الدكتور «شڤورر» حقنة كافور وحقنه بها في محاولة لإنعاش القلب. ولكنّ الحقنة لم تأت بأيّ نتيجة: وبدا أنّ حالته لم تعد تستجيب لأي محاولة إنقاذ. ومع ذلك قال الطبيب لـ «أولغا» أنّه سيرسل في طلب قارورة أوكسيجين. وفجأة استعاد «تشيخوف» وعيه، وبيقظة كاملة قال بنبرة اعتراض واهنة: «وما الفائدة منها؟ فحين سأتون بها لن أكون سوى جثة هامدة».

تفرّس الدكتور «شڤورر» في وجه «تشيخوف» وهو يمسّد بحركة آلية شاربيه المرفوعين كمقود درّاجة. كان شاحباً بلون الشمع وأنفاسه تشبه الحشرجة. وأدرك الدكتور «شڤورر» أنّ حياته باتت معدودة بالدقائق. ودون أن يتفوّه بكلمة أو يتشاور مع «أولغا» بهذا الشأن، اتجه نحو الزاوية التي تخفي الهاتف المعلّق على الجدار. قرأ بتمعّن إرشادات طريقة الاستعمال. كان عليه فقط أن يضغط على الزرّ وأن يبرم المساك المثبت على أحد جانبي الآلة للاتصال ببدروم الفندق حيث المطابخ. رفع السمّاعة وألصقها على أذنه وتبع ما تقوله الإرشادات حرفياً. وحين سمع صوتاً يردّ عليه أخيراً طلب الدكتور «شڤورر» زجاجة من أفخر أنواع الشمبانيا المتوفّرة في الفندق. وحين سئل عن عدد الكؤوس التي يريدها. صرخ في بويق الهاتف: «ثلاث كؤوس! وعلى جناح السرعة، أسمعت؟». لقد كانت واحدة من لحظات الإلهام تلك والتي لا تلبث أن تطوى بعد الأوان، ذلك أنّ مثل هذا التصرّف يلائم الحدث على تمامه حتّى يكاد يكون من تفاصيله المكمّلة.

جاء بالشمبانيا أحد صبيان الفندق وقد بدا عليه الإرهاق. كان شعره الأشقر مشعثاً وبنطال بزّته مدعوكاً وقد امّحت ثنيّاته ولعجلته كان زرّر سترته في العرى غير المناسبة. ويبدو جليّاً من مظهره أنّه كان أغفى من شدّة التعب على أريكة حين - يا إلهي العلي القدير! - شقّ رنين الهاتف سكون الليل. وما كان من رئيسه المباشر إلاّ أن هرع لإيقاظه بلكزة مشحونة من يده وأمره بأن يوصل زجاجة «مويت» إلى الغرفة 211 («وعلى جناح السرعة، أسمعت؟»).

دخل الصبيّ إلى الغرفة حاملاً صينية فضّة وضع عليها سطل خاص بزجاجة الشمبانيا من الفضّة أيضاً وثلاث كؤوس من الكريستال المنقوش. وضع السطل والكؤوس على منضدة متلفتاً من حوله محاولاً أن يتبيّن ما الذي يجري في الغرفة المجاورة التي تترامى منها أصوات نشيج يائس. كانت الأصوات مخيفة ومؤثرة. تضاعفت حدّة الحشرجات واستدار الفتى مطرقاً حتّى التصق ذقنه بياقة سترته. سرح نظره في اتجاه النافذة وراح يحدّق بشرود في الكتلة المعتمة للمدينة النائمة. ثمّ جاء رجل طويل القامة ضخم الجثة بشاربين كثّين ودسّ في كفّه عدداً من القطع النقدية (وبمجرّد اللمس، أدرك أنّه بخشيش سخيّ) ثم وجد نفسه أمام الباب المفتوح. فتقدّم بضع خطوات وتوقف عند صحن الدرج، فتح يده ونظر إلى النقود التي تحتويها بذهول.

عمد الدكتور «شفورر» إلى فتح زجاجة شمبانيا. وشأنه في كلّ ما يفعله، حاول في انهماكه أن يراعي الأصول جاهداً في كتم الفرقعة المبتهجة التي تصدر عنها. ملأ الكؤوس الثلاث، ثمّ، بحركة آلية أعاد السدادة إلى عنق الزجاجة ودفعها إلى الداخل براحة يده. وعندئذ تقدّم نحو السرير حاملاً الكؤوس الثلاث. أفلتت «أولغا»

على الفور يد «تشيخوف» (تلك اليد التي كانت تلهب أصابعها، كما ستكتب لاحقاً). ووضعت وسادة أخرى خلف رقبته ثمّ وضعت الكأس المثلّجة في يده وأطبقت له أصابعه على ساق الكأس برفق. «تشيخوف» و«أولغا» والدكتور «شڤورر» تبادلوا النظرات ولكنهم لم يتبادلوا الأنخاب. نخب ماذا عساهم يشربون، بحقّ السماء؟ نخب الموت؟ وتمتم «تشيخوف» مستجمعاً ما تبقى له من قوة وقال: «لم أشرب شمبانيا منذ وقت طويل». ثمّ رفع الكأس إلى شفتيه وشرب. وبعد مضيّ لحظات تناولت «أولغا» الكأس الفارغة من يده ووضعتها على المنضدة قرب السرير. استدار «تشيخوف» وتمدّد على جنبه، أغمض عينيه وتنهّد. وفي اللحظة التالية انقطعت أنفاسه.

كانت يد «تشيخوف» قد تراخت فوق الشرشف. فأمسكها الدكتور «شڤورر» وضغط بإصبعين على المعصم وأخرج من جيب صدرته ساعته الذهب وفتح غطاءها بحركة من ابهامه. كان العقرب الكبير يدور ببطء شديد. وانتظر حتّى تمام دورته الثالثة متحسساً ولو لنبضة واحدة. وعلى الرغم من أن الساعة كانت تقارب الثالثة فجراً فقد كانت الحرارة خانقة داخل الغرفة. وكانت بادنڤايلر تشهد أسوأ موجات الحرّ التي لم تشهدها منذ سنوات طويلة. كل نوافذ الغرفة مشرّعة على مصاريعها ولكنّ نسمة واحدة لم تهبّ منها. فراشة ليل ذات جناحين أسودين دخلت من النافذة وراحت تصطدم بهلع باللمبة المضاءة. «لقد انتهى الأمر»، قال الدكتور «شڤورر» وهو يفلت معصم «تشيخوف». وأغلق غطاء ساعته وأعادها إلى جيب صدريته.

لم تلبث «أولغا» أن مسحت دموعها واتخذت سحنة هادئة. شكرت الطبيب على مجيئه. اقترح عليها الدكتور «شڤورر» أن تتناول

مهدّئاً. جرعة لودانم ربّما أو بضع قطرات من الناردين. رفضت اقتراحه بحركة من رأسها ولكنّها قالت له، بالمقابل، أنّها تودّ أن تسأله معروفاً: فهي تودّ أن تمكث لبعض الوقت بمفردها إلى جانب «تشيخوف» قبل أن يتم إخطار السلطات، وقبل أن تستولي الصحافة على الخبر ويصادر جثمانه منها. فهل تطمع في خدمة يسديها لها؟ وهل بمقدوره أن يرجئ، لبعض الوقت على الأقل، إعلان نبأ الوفاة؟

مسّد الدكتور «شفورر» شاربيه الكثّين بطرف ابهامه. باه، لم لا؟ فأي أهمية لإعلان النبأ على الفور أو إرجاء هذا الإعلان لبضع ساعات أخرى؟ إذ لم يبق عليه سوى أن يحرّر وثيقة الوفاة ويوقّعها وباستطاعته أن ينجز هذا الأمر، فيما بعد، في الصباح، في عيادته بعد أن يأخذ قسطاً من الراحة. وبحركة من رأسه أبدى موافقته على ما تطلبه «أولغا» واستأذنها بالمغادرة بعد أن تمتم بعض عبارات العزاء فأحنت «أولغا» رأسها. «كان شرفاً لي»، قال الدكتور «شفورر». ثمّ تناول حقيبته وغادر الغرفة ـ والتاريخ في وقت معاً. وفي تلك اللحظة بالذات فرقعت سدادة قنينة الشمبانيا وطارت فاندلقت الرغوة على المنضدة.

عادت «أولغا» إلى غرفة «تشيخوف» وجلست بقرب سريره على مقعد واطئ. كانت تمسك بيده ومن حين لآخر تمسح وجهه براحة يدها الأخرى. «لم تكن تترامى إلينا أي أصوات بشرية، كتبت في مذكّراتها. كان اضطراب الحياة اليوميّة غائباً. ولم يبق إلاّ الجمال والدعة وجلال الموت».

مكثت بجانب «تشيخوف» حتّى الصباح. وعندها راحت طيور السمّان تغرّد في حديقة الفندق. ثمّ سمعت صخب توضيب

الطاولات والكراسي. وبعد ذلك بقليل ترامت إلى مسامعها بعض الأصوات، وفي الأثناء قرع الباب. حسبت بالطبع أنّه لا بدّ أن يكون أحد الموظفين الحكوميين: الطبيب الشرعي أو أحد رجال الشرطة الذي سيعمد إلى استجوابها ويطلب منها أن تملأ استمارة ما. حتّى خطر لها أنّه ربّما كان الدكتور «شڤورر» وقد جاء برفقة أحد المشرفين على موكب الدفن الذي سيقوم بترتيبات جثمان «تشيخوف» ويشرف على إعادة رفاته إلى روسيا.

إلاّ أنّها حين فتحت الباب لم تجد أمامها سوى صبيّ الفندق الأشقر الذي كان أحضر لهم الشمبانيا لساعات قليلة خلت. ولكنّ بنطال بزّته، هذه المرة، كان مكوياً لتوه وثنيته لا شائبة فيها أمّا سترته الخضراء فمزرّرة بعناية كلّ زرّ نحاسي في عروته. بدا لها مختلفاً عن الشخص الذي رأته من قبل. ليس فقط لأنه يتمتع بحيوية من نام ملء جفنينه بل أيضاً لأنّه يبدو، بذقنه الحليقة وشعره المسرّح، كمن يودّ فعلاً أن ينتزع الإعجاب. كان يحمل بين يديه مزهرية من الخزف الصيني وفيها ثلاث زهرات صفراء ذات سيقان طويلة. قدّمها لـ «أولغا» مفرقعاً كعبيه في وقفة عسكرية. أفسحت له «أولغا» ليدخل. قال لها أنّه جاء لأخذ الكؤوس والسطل والصينيّة بالإضافة إلى أنّه مكلّف بإبلاغهم بأنّ طعام الفطور سيقدّم هذا الصباح في الحديقة بسبب موجة الحرّ التي تشهدها المدينة. وعبّر لها عن أمانيه بأن لا تكون الحرارة قد أزعجتها كثيراً وبأنه آسف لمثل هذا الطقس الرديء.

كانت المرأة تبدو ساهمة. فبينما كان صبيّ الفندق يتكلّم كانت مطرقة تحدّق في نقطة ما في السجّادة التي تغطي الأرض. شبكت ساعديها وأمسكت مرفقيها بجماع كفّيها. وانتظر الصبيّ الذي كان لا

يزال يحمل المزهرية، إشارة منها بفارغ الصبر وراحل يجيل بنظره في أرجاء الحجرة. كان نور الشمس يتدفق من خلال النوافذ المفتوحة، والغرفة موضبة على أكمل وجه كما لو أن أحداً لم يقضِ ليلته فيها. لا ملابس ملقاة على الكنبات ولا أحذية بادية للنظر، ولا جوارب أو مشدّات أو مخصّرات أو حقائب مفتوحة. أي باختصار لا أثر للفوضى العاديّة ولا شيء سوى الأثاث المعتاد لغرف الفنادق، الثقيل والذي لا سمة تَميُّزٍ فيه. ولمّا مكثت المرأة مطرقة أطرق الخادم بدوره ورأى السدّادة على الأرض تكاد تلامس حرف حذائه. لم تلاحظ المرأة وجودها من قبل فقد كانت ساهمة مشوّشة الأفكار أراد الخادم أن ينحني ليلتقط السدّادة إلاّ أنّه كان لا يزال ممسكاً بالمزهريّة ويخشى لو فعل ذلك أن يثير انتباهاً أكثر ممّا ينبغي.

حاول جاهداً إذن أن يترك السدادة حيث كانت وأن يرفع عينيه. كان كلّ شيء مرتباً في مكانه باستثناء زجاجة الشمبانيا المنزوعة السدادة، ونصف الفارغة التي وضعت على المنضدة وإلى جانبها كأسا الكريستال. ومن جديد جال الخادم بأنظاره في الأرجاء. وعبر الباب المفتوح قليلاً لغرفة الوسط لمح الكأس الثالثة على السرير! لم يستطع أن يرى وجهه إلاّ أن كتلة جسمه كانت بلا حراك تحت الشرشف. وإذ تحقّق من وجوده حاد الخادم بعينيه نحو مواضع أخرى. وعندها أحسّ بضيق لا يعرف مصدره بالضبط. فتنحنح وأرخى ثقل جسده على ساقه الأخرى. كانت المرأة لا تزال مطرقة متحصّنة خلف صمتها. وأحسّ الخادم بأنّ الدماء تلهب خدّيه. وخطر له فجأة أنّه ربّما كان عليه أن يقترح بديلاً للفطور في الحديقة. فتنحنح مرّة ثانية ليسترعي انتباه المرأة ولكنّها لم ترفع عينيها. فقال إنّ نزلاء الفندق المميّزين من الأجانب بإمكانهم، إن

أرادوا، أن يتناولوا طعام الفطور في غرفهم هذا الصباح. وأضاف الصبيّ (لم نعثر على ذكر لاسمه والأرجح أنه هلك خلال الحرب الكونية الأولى) أنّ من دواعي سروره أن يحضر لهم صينية الطعام بنفسه. أقصد صينيتي الطعام، في النهاية، قال مستدركاً وهو يلقي بنظرة حائرة في اتجاه الغرفة الأخرى.

مكث صامتاً ومرّر إصبعه تحت ياقة سترته. كان لا يفهم من الأمر شيئاً. وبدت المرأة وكأنها لم تسمعه. وارتبك في وقفته ولم يعرف إلى أي قديس يبذل ابتهاله. كان لا يزال ممسكاً بمزهريته. وعطر الأزهار العذب يعبق في منخريه، ويحسّ، دون أن يعرف لماذا، بضيق ما يعتصر فؤاده. منذ وصوله إلى هذه الغرفة والمرأة لا تفارق شرودها مستغرقة في أفكارها الغامضة. حتّى يكاد يحسب أنّها طوال مكوثه أمامها وهو يتكلّم ويبدّل من وقفته في تناوب ساقيه على حمل ثقل جسمه، كانت في مكان آخر وبعيدة جداً عن بادنڤايلر. ثمّ بدت وكأنها تعود إلى وعيها وامّحت من وجهها ملامح الشرود. رفعت عينيها نحوه، ونظرت إليه وهزّت برأسها. بدت وكأنها لا تفهم ما الذي جاء بهذا الصبيّ إلى غرفتها وفي يده تلك المزهرية التي وضعت فيها ثلاث زهرات صفراء. ورود؟ هي لا تذكر أنّها طلبت وروداً.

بعد أن تمالكت نفسها ذهبت لإحضار حقيبتها وتناولت منها بعض النقود ومعها بعض الأوراق النقدية. مرّر الصبيّ لسانه على شفتيه. فهو سيحظى من جديد بإكرامية سخيّة. ولكن لأيّ سبب؟ ما الذي تريده هذه المرأة؟ إذا لم يسبق له أن رأى زبائن من هذا النوع في الفندق. ومرّة أخرى، تنحنح بصوت مكتوم.

قالت له المرأة إنّها لا تريد طعام الفطور. ليس اليوم على أية

حال. فهناك ما هو أهم من طعام الفطور. ولكنها، في المقابل، تريد أن تسأله معروفاً. فهي تطلب منه أن يذهب لإحضار منسّق موكب الدفن. أجل، دفّان الموتى. فهل يفهم ما تقول؟ لقد توفي السيّد «تشيخوف»، أتفهم ما أقول؟ هل تفهم أيّها الفتى؟ لقد مات «انطون تشيخوف». والآن اسمعني جيداً، قالت. فهي تطلب منه أن ينزل إلى ردهة الاستقبال وأن يسأل الموظّف هناك عن أشهر دفّان في المدينة، على أن يكون موثوقاً ودقيقاً في عمله وأن يراعي اللياقة الضرورية في مثل هذه الأمور. أي باختصار، دفّان يليق بفنان كبير. خذ، قالت وهي تدسّ الدراهم والأوراق النقدية في يد الصبيّ. وقل لموظف الاستقبال أنني مصرّة على أن تقوم أنت نفسك بما أطلبه منك. أتسمعني؟ أتفهم ما أقول؟

لقد كان الخادم يبذل ما بوسعه لالتقاط معنى كلامها. وكان يتجنّب النظر في اتجاه الغرفة الأخرى. إذ ينتابه الشعور بأن هناك ما ليس على ما يرام. وانتبه إلى أنّ قلبه يخفق بضربات سريعة تحت سترته وأن جبينه يتصبّب عرقاً. وكان حائراً لا يعرف إلى أين يحيد بعينيه ويودّ فعلاً لو يتخلّص من تلك المزهريّة.

أرجوك، قم بهذه المهمّة إكراماً لي، قالت المرأة. ولن أنسى صنيعك ما حييت. قل لموظف الاستقبال إني ألحّ على طلبي هذا. قل له هذا ولكن أرجو أن لا تبالغ في استرعاء انتباه الآخرين إليك أو إلى الموقف الذي تكابده الآن. قل له إنّ الأمر ملحّ وانني أصر على ذلك ولا شيء أكثر. أتسمعني؟ إذا فهمت ما أقصد أشر برأسك ان لا أو نعم. وعلى الأخص لا تطلع أحداً على هذا الأمر. فباقي الأمور والتوابع والصخب كلّ هذه لن تلبث أن تحلّ في وقت قريب. أمّا أقسى ما في الأمر فقد انقضى الآن. أحسب أنك تدرك ما أقول؟

كان وجه الصبيّ قد أصبح شاحباً، يقف منتصباً بلا حراك كوتد ويداه ممسكتان بالمزهريّة. وبصعوبة بالغة استطاع أن يجيب بإشارة من رأسه.

بعد أن يحظى بالإذن لمغادرة الفندق كان يتوجّب عليه أن يتجه بحزم وهدوء ودون عجلة لا طائل فيها نحو بيت دفّان الموتى. وينبغي أن يتصرّف تماماً كمن كلف بقضاء مهمّة بالغة الأهمية، ولكن ليس أكثر. والواقع أنّ ما كلّف به مهمّة بالغة الأهمية، قالت المرأة. ولكي تكون له مشية تلائم ظروف ما أوكل إليه فليس عليه سوى أن يردّد في سرّه أنه ينبغي أن يسير على رصيف مزدحم وهو يحمل بين ذراعيه مزهريّة ورد ـ مزهرية من الخزف الصيني ـ كلف بإيصالها إلى شخص ذي مكانة (كانت تكلمه بصوت خفيض جدّاً، كأنّها تسرّ بأمر ما لصديق أو قريب). حتّى أنّ هذا الرجل ينتظره ويتلهّف لاستلام هذه الورود. ومع ذلك فلا ينبغي أن يشعر الصبيّ بالتوتر ولا أن يركض ولا حتّى أن يسرّع مشيته. وينبغي ألاّ ينسى أنه يحمل مزهرية! عليه أن يسير بخطى ثابتة ومتوازية مضفياً على مشيته أكبر قدر من المهابة. وسوف يسير على هذا النحو حتّى يصل إلى بيت الدفّان. وما أن يصبح أمام باب داره عليه أن يرفع مطرقة البرونز ويرخيها ثلاث مرّات على التوالي وعندئذ سيأتي دفّان الموتى ليفتح له الباب بنفسه.

لا بدّ أن يكون رجلاً أربعينيّاً أو ربّما أكبر من ذلك بقليل، أصلع، قوي البنية، ويرتدي نظّارتين من معدن تنزلقان حتّى طرف أنفه. رجل متواضع ومنزّه عن أي غرور لن يطرح سوى الأسئلة المباشرة والضرورية. مئزر. بلى، من المؤكد أنّه يرتدي مئزراً. وربّما مسح يديه بفوطة سوداء وهو يصغي إلى شروحات الصبيّ.

ومن ثيابه تنبعث روائح فرمول خفيفة. ولكنّ الأمر لا يخلو من أن يكون عاديّاً وعلى الفتى أن لا يتوقّف عنده. فهو يكاد أن يكون رجلاً الآن ولا ينبغي أن تثير لديه مثل هذه الأمور لا الخشية .ولا التقزّز. سيصغي الدفّان إليه بصبر وأناة. فهو رجل بارد الطباع بالغ اللياقة، رجل يعرف جيّداً كيف ينبغي أن يتصرّف لكي يخفف من اضطراب المعنيين في مثل هذه الظروف بدل أن يؤججه. إنّه يحيا ومنذ وقت غير قصير في صحبة الموت. ويعرفه في كلّ وجوهه وتجليّاته ولم يعد يرى في هذا المضمار لا مفاجأة ولا سرّاً. ومثل هذا الرجل هو ما تحتاج إليه المرأة في مثل هذا الوقت.

يأخذ الدفّان المزهريّة. ومرّة واحدة فيما الصبيّ ينهمك في اطلاعه على الأمر، تلتمع في نظراته شبهة اهتمام ما، يظهر لمحدّثه أنّه يرى في كلامه أمراً يختلف عن أمور الحياة العادية. بلى، لقد جحظت عينا الدفّان حين ذكر الصبيّ اسم المتوفي لأوّل مرّة. هل قلت «تشيخوف»؟ حسناً، لحظة واحدة وأكون معك.

أتفهم ما أقول؟ سألت «أولغا» الصبيّ. دع هذه الكؤوس. لا تنشغل بها. إنسَ كؤوس الكريستال وكلّ الباقي. دع الغرفة كما هي. فكل شيء بات جاهزاً الآن. ونحن أيضاً. فهل تذهب؟

ولكنّ الصبيّ لم يكن يفكر عندها إلاّ في السدادة التي لا تزال على الأرض بجانب حرف حذائه. ولكي يلتقطها كان عليه أن ينحني دون أن يسقط المزهريّة. وهذا ما فعله. أمال جذعه ودون أن يخفض عينيه التقط السدادة برؤوس أصابعه وأخفاها في قبضة يده.

إشكال ميكانيكي

ريموند كارڤر

في صبيحة ذلك اليوم تبدّل الطقسُ واستحال الثلجُ مياهاً وَسِخةً كانت تنهمرُ قطراتٍ على زجاج النافذةِ المطلّة على الفناء الخارجي بارتفاع قامة رجل. وفي الخارج كانت السيّارات تعبُرُ بهدير مُبَلَّل. وكان الظلامُ يُرخي دُكْنَته فيتسرّب شيءٌ من عتمته إلى الداخلِ أيضاً.

كان الرجل في غرفة النوم يُرتّبُ ثيابه في حقيبة. فتحت المرأة الباب وصرخت:

ـ إني سعيدة لرحيلك! أجل، سعيدة، أتسمعني؟

تابع توضيب حقيبته.

ـ أيها النذل! أردفت قائلةً. إني سعيدة لرحيلك. (وغصّت بدموعها). لا تجرؤ حتّى على النظر إلى وجهي، أليس كذلك؟

وفجأة لمحت صورة الطفل على السرير وخطفتها.

نظر الرجل إليها، فمسحت دموعها ورمقته مطوّلاً قبل أن تعود أدراجها إلى الصالة.

ـ أعيدي إليّ ما أخذته، قال.

ـ ليس لك ألاّ أن تحمل حقائبك وترحل، أجابته.

لم يُجب. أحكم رباط الحقيبة وارتدى معطفه، ثمَّ ألقى بنظرةٍ خاطفة في أرجاء غرفة النوم قبل أن يُطفئ اللمبة. ولحقَ بها إلى الصالة.

كانت المرأة واقفةً عند باب المطبخ، والطفلُ بين ذراعيها.

ـ أريد الطفل، قال لها.

ـ أجُنِنْت؟

ـ لا. أريد الطفل. وسأرسِلُ من يأتي بحاجياته.

ـ لن تلمس الطفل.

راح الطفل ينتحب فرفعت قليلاً طرفَ الغطاء الذي يغطي رأسه.

ـ حسناً، حسناً، إهدأ، هدهدته قائلةً.

دنا الرجلُ منها.

ـ بحقّ السماء، ارحل عنّا! قالت وهي ترجع القهقهرى في اتجاه المطبخ.

ـ أريد الطفل.

ـ أغرب عن وجهي!

واستدارت محاولةً التنحّي في ركنٍ لحماية الطفل خلفَ فرن الغاز.

إلاّ أنّ الرجل تَبعها وبسط ذراعه من فوق الفرن وتشبّثت يداه بالطفل.

ـ اتركيه! قال بلهجة آمرة.

ـ أغرب عن وجهي! أغرب عن وجهي! صرخت.

كان الطفل المحتقن الوجه يغصُّ بالنحيب، وقد أوقع والداه في شجارهما مزهريةً كانت معلّقة خلف الفرن.

استطاع أن يحشر زوجته في إحدى الزوايا وحاول أن ينتزع منها الطفل. كان يتشبّث بالطفل ويحاول أن يُبعدها عنه بكل ما أوتي من قوّة.

ـ اتركيه، قال مجدداً.

ـ كفَّ عن ذلك! قالت بحسرة. إنّك تؤذيه.

ـ لا، لن أسبب له أي أذى.

ما من بارقة نور كانت تتسرّب من نافذة المطبخ. وفي العتمة حاول بإحدى يديه أن يفتح كفَّ المرأة المضمومة بقوّة، فيما تشبّثت يده الأخرى بكتف الطفل الذي كان يصرخ معولاً.

أحسّت أنّ الطفل يبتعد.

ـ لا، صرخت فيما أصابعها تستسلم.

يجب أن تنال هذا الطفل. إنّها في حاجةٍ إليه. فأمسكت بذراعه الأخرى وطوّقت معصمه بقبضتها وشدّت إلى الخلف.

إلاّ أنّ الرجُلَ كان ممسكاً به بثبات. وعندما أحسَّ بأنّ الطفل يفلت من يديه، شدّ بدوره وبكلّ ما أوتي من قوّة.

وهكذا وجدت المشكلة حلّها.

دانيلّو كيش

V

هاتان القصّتان من المجموعة القصصيّة الأولى للكاتب اليوغسلافي دانيلو كيش (1935 ـ 1990) التي صدرت عام 1984 بعنوان: «أحزان مبكرة». وهذه المجموعة، مع «ساعة الرمل» (1982) و«حديقة، رماد» (1972)، ثلاثيّة نشرت في كتاب واحد عن دار غاليمار (1989) بمثابة سيرة ذاتية للكاتب الذي يعتبر أحد كبار الروائيين الأوروبيين، ترجمت أعماله إلى لغات عدة، ومنحته مدينة نيس (الفرنسية) جائزة «الصقر الذهبي الكبير» عام 1980 لمجموعته القصصية وأعماله الروائية.

القصر المنوّر بالشمس

دانيلّو كيش

ضاعت مندارين أجمل بقرة في القرية، أمّا هو فيجب أن يجدها بأي ثمن، حتّى لو اقتضاه الأمر أن يبحث عنها طوال الليل. السيّد مولنار لن يغفر له: لأنّ مندارين أفضل بقرة عند السيّد مولنار. وعليه أن يفتّش في أرجاء الغيضة كلّها وأبعد من الغيضة إن اقتضى الأمر. سيطلب من فيراغ أن يعيد بقرات السيّد مولنار مع بقراته وأن يقول له: «لقد ضاعت مندارين. كأنّها طارت». وأن يقول له أيضاً: «أن يسأل السيّد مولنار ألاّ يغضب منه. سيفعل المستحيل للعثور على مندارين، لأنّه يعرف أنّ مندارين نتوج وأنّها أفضل بقرة في القرية، ولكن ما العمل، كأنّها طارت». وأن يقول له أخيراً: «آندي يريدك أن تعلم أنّه إذا لم يعثر على مندارين حتّى صباح الغد فالأفضل أن لا ينتظره أحد. سيذهب إلى أقاصي الأرض ولن يعود ثانية إلى القرية، فلا يغضب السيّد مولنار». وأن يقال لأمّه، السيّدة سام، لا تبكي، «لقد رحل آندي إلى أقاصي الأرض لأنّه ضيّع مندارين». ولكن، لينقل لها الخبر برويّة وإلاّ قد تموت من شدّة الصدمة. الأفضل أن يقال لها فقط: «آندي ضيّع مندارين. ولن يعود قبل أن يعثر عليها». أجل، هذا ما سيقوله لفيراغ، كان دائماً يساعد فيراغ عندما كان يضيّع بقرة.

وما الذي سيقوله للسيّد مولنار لو وجد مندارين وأعادها في ساعة متأخرة من الليل كالمرّة السابقة؟ سيشرح له أنّ مندارين كانت ترعى قرب البقرات الأخرى وأنّها، فجأة، اختفت، وكأنّها طارت.

«أهكذا ترعى البقرات؟» سيقول له السيّد مولنار. «أخبرني، أهكذا ترعى البقرات؟ بماذا تتلهّى وأنت في الغيضة، هيّا أخبرني؟».

وسيجيب: «لا شيء، يا سيّد مولنار، أعرف أنّ مندارين نتوج ولا أدعها تبتعد عن باقي البقرات، ولكن، ما العمل، كأنّها طارت». هذا ما سيقوله لو وجدها.

في تلك اللحظة، حسب الفتى أنّه يسمع أصوات أغصان تتقصف في الدغل وتوقّف لاهثاً.

«مندارين! مندارين!».

أصغى وهو يحبس أنفاسه.

سمع في البعيد مزمار راع. أيقن أنّ العتمة أدركت الغابة وأنّه، بعد قليل، لن يبقى في إمكانه الاهتداء إلى الطريق.

«دينغو، قال الفتى، أين مندارين؟ أخبرني، أين مندارين؟».

كان الكلب جاثماً أمامه ينظر إليه بعين نابهة. «دينغو، ما العمل؟» قال الفتى.

وفيما يتحدّث إلى الكلب كان ينظر مباشرة إلى عينيه والكلب يفهم كلامه. حرّك ذنبه وأنّ مطرقاً.

«إذا لم نعثر على مندارين في وقت قريب فلن نعود إلى بيت السيّد مولنار»، أضاف الفتى مخاطباً الكلب الذي يركض أمامه وهو يئنّ.

كانا يسلكان درباً ضيّقاً مليئاً بأشواك العلّيق نحو «السنديانة الملكية».

«وستصحبني، قال الفتى، السيّد بركي لن يغضب كثيراً إذا أبقيتك معي. فهو يعلم أنّك في صحبتي وأنّه لن ينقصك شيء. تخيّل قليلاً أنّك تتخلّى عنّي! تخيّل أنّك ذات نهار تعود إلى القرية وتقف أمام البيت وتنبح. سيقول الجميع: «واضح أنّ آندي لن يعود أبداً». طبعاً لن يقال هذا بصوت عال في حضور أمّي وآنا. ولكن الفكرة ستخطر في بال الجميع لو عدت، وحدك إلى القرية».

توقّف الكلب واشتمّ شيئاً ما.

«يا رب، قال الفتى، ساعدني لأجد مندارين». أنّ دينغو وأدرك الفتى أنّه أثر أرنب برّي أو وكر ثعلب. كان يميّز بصعوبة الكلب الذي كان يعبر الدغل الكثيف وهو يئنّ.

«لهذا السبب سنرحل معاً، أنا وأنت. لأنّك تخيّل أنّك تعود منفرداً: أمّي وآنا والسيّد بركي وكلّ الآخرين يقفون أمامك ويسألونك بشيء من اللوم: «دينغو، أين آندي؟» وستفهم أمّي فوراً من سحنتك أنّني ميّت وستنهار فيما آنا تولول وتشدّ شعرها. وسيؤاسيهما السيّد بركي، قائلاً: «ولكن يا سيّدة سام لا تكوني سخيفة، من قال لك، فكّري قليلاً، إن آندي تعرّض لمكروه؟ لقد عاد دينغو ببساطة لأنّه جائع أو لأنّ آندي طرده» هذا ما سيقوله السيّد بركي، دون أن يغضب، لأنّه سيكون هو نفسه مقتنعاً بأنّني مت، أو بأنّني رهين لدى بعض قطّاع الطّرق، أو بأنّ الذئاب افترستني أو حتّى بأنّني سجين جنّية الغيضة، ولكنّه سيدّعي بأنّه لا يفكّر في كلّ هذه الأشياء بسبب أمّي وآنا... ولكن ما الذي سيعتمل في أعماق نفسه تجاهك، أخبرني؟ لن يقول لك شيئاً في حضور الجميع، ولكن ما أن ينفرد بك حتّى ينظر إليك باحتقار، وحتّى قد يبصق في خطمك لأنّك تخلّيت عنّي. أعرف جيّداً أنّك لن تجرؤ أبداً على

ذلك، ولكنّني أتحدّث عن الأمر هكذا مجرّد حديث. أتذكر ذلك الكتاب، «الرجل والحصان والكلب»، ذلك الكتاب الذي قرأته في الخريف؟ أنت تذكره طبعاً، الكتاب الذي كنت أقرأه والبقرات ترعى على طول «الطريق الروماني». فيما بعد رويت قصّته للجميع، لفيراغ ولاتسي طوط ولبيلا هرمان، للجميع. حسناً، إذن تذكر كم كانوا أوفياء بعضهم للبعض الآخر. تذكر، «الغرب القصيّ» بأسره لم يستطع شيئاً ضدهم... وماذا لو هاجمتنا الذئاب؟ في استطاعتك أن تواجه ذئبين على الأقل، أليس كذلك؟ وأنا؟ في رأيك كم من الذئاب يستطيع أن يقضي على آندي ودينغو إذا ما بقيا معاً في الغابة؟ وإذا ما أسرنا قطّاع طرق؟ تستطيع أن تحلّ رباطي أثناء نومهم. ويصبح الأمر هيّناً، يكونون نياماً فأنتزع، أنا، مسدّساً من أحدهم، لا، بل مسدّسين. واحداً في كلّ يد. أتظنّني لا أجيد إطلاق النّار؟ آمل أن لا تكون لديك أيّة شكوك حول الأمر. وبعد ذلك سنقتادهم إلى مركز الشرطة. وستعتري الدهشة الجميع وسيخضعوننا لاستجواب طويل. ثمّ سيعمدون إلى استدعاء أمّي والسيّدة ريغو المعلّمة. وستخاف أمّي كثيراً لأنّها ستظنّ حين تستدعى إلى مركز الشرطة، أنّهم وجدوني ميّتاً أو ارتكبت جرماً فظيعاً، لكنّهم سيسارعون إلى تهنئتها ويخبرونها أنّني اعتقلت أشدّ اللصوص خطراً وشراسة وأنّ هناك مذكّرات اعتقال في حقّهم منذ سنوات دن أن ينجح أحد باعتقالهم، ثمّ سيسلّمون المكافأة إليها؛ مبلغاً هائلاً من المال يتطلّب تحصيله عدّة نهارات؛ إلاّ أنّ مثل هذا المبلغ لا يعطى للأطفال حتّى لو كانوا هم من انتزع سلاح أشدّ اللصوص خطراً وشراسة. وستكون السيّدة ريغو هناك لتعدّ المال، ولكي يشرحوا لها أنّها، طبقاً للقانون، ينبغي أن تشطب كلّ أيّام تغيّبي. وفي اليوم التالي ستقول في المدرسة: «إنهض يا آندي».

وسيظنّ فيراغ ولاتسي أنّ المعلّمة ستطلب منّي أن أذهب إلى الحديقة لأحضر القضبان لتضربني. ولكن عوضاً عن أن تفعل، سوف تقول: «يا أولادي، أنّ أندرياس سام، تلميذ مدرستنا، قد اعتقل أخطر عصابة لصوص». وطبعاً ستقول إنّه فعل ذلك مع كلبه المدعو دينغو وسوف تبكي جوليا رايو لشدّة الانفعال، ولتصوّر ما كان ممكناً أن أتعرّض له من أهوال».

كان يتكلّم بصوت عال، ولم يكن ليسع أحداً أن يسمعه إلاّ كلبه. كان الظّلام أدرك الغابة وحدها، فوق الأغصان العالية، كانت السماء بزرقتها الليلية الداكنة، والفتى، خلف الكلب، يجتاز العلّيق المتشابك يحمي وجهه بيديه. ويدوس بقدميه الحافيتين الطحلب والأوراق المتساقطة، ماعساً الأعواد اليابسة التي تنقصف في طريقه، ويتكلّم بصوت عال لأنّ الغابة تضجّ بألف صوت وأحسّ الفتى أنّه ضلّ فيها إلى الأبد. ما عادت تترامى له من أيّ صوب أصوات الرعاة وسكت خوار البقرات البعيد منذ وقت طويل. لا بدّ أنّ فيراغ عاد الآن وأعاد بقرات السيّد مولنار وأخبره، على الأرجح، كلّ القصص التي خطرت له، لأنّه لم يكن لهما متّسع من الوقت للاتّفاق على قصّة واحدة، وبالطبع سيخبره الأسوأ، الخائن. تماماً كما خانه في السنة الماضية، حين امتطى آندي ظهر شوكولاتين، علم السيّد مولنار وهدده بالطرد. لا شكّ في أنّ فيراغ هذا أخبره كلّ شيء: أنّهم كانوا يرعون البقرات في «غيضة الكونت» وأنّهم أشعلوا ناراً وأنّه، أي هو آندي، روى لهم قصّة «قبطان الجرس الفضّي». وأنّه فيما بعد، عندما أرادوا جمع البقرات لأنّ الشمس مالت للمغيب وعاد رعاة باكسا وشندرغ إلى ديارهم، لاحظ آندي أنّ منداريـن ليست بين البقرات. والآن سيسأل السيّد مولنار فيراغ كم مضى من الوقت دون أن ينظر آندي إلى البقرات. وفي وسع هذا الغليظ

فيراغ، هذا الغجريّ، أن يروي له كيف اتّفق بيلا هيرمان، الملقّب «ب»، وهو، آندي، على أن يتولّى «ب» حراسة بقراته، أو الأحرى بقرات السيّد مولنار: وبهذه الطريقة يستطيع آندي أن ينهي قراءة «قبطان الجرس الفضّي» وأن يرويها لهم، وفيراغ هذا سيفضح كلّ الحكاية. عندما قال له «ب» إنّه ضيّع مندارين، اكتفى آندي بإرسال الكلب في أثرها وتابع قراءته من حيث قاطعها: في تلك اللحظة حين تدخل الخلاسيّة إلى مقصورة المركب وتخبر ألكسندر هيونث أنّها ستنتحر بالسم من الغيرة. وكانت تحمل حبّة بيضاء في راحة يدها وعيناها تلمعان التماعة بحر قزوين. . .

«وما العمل؟» قال الفتى بصوت عال مخاطباً الكلب الذي كان يتبع أنينه دون أن يراه، «ماذا نفعل لو جاءت جنيّة الغابة وسحرتنا؟ أترى، جيد أنّك ترافقني. فما أعرفه أن لا جنّيات الغيضة ولا الساحرات يستطعن أن يسحرن الكلاب، وعليه، ما أن نرى القصر ستمكث في الخلف كي تراقب ما يجري. لا عجب، فقد نصادف هذا القصر في أيّ لحظة، ولكن أوصيك خاصّة بأن لا تخاف، فإذا كان قصراً قديماً وجميلاً كقصر الكونت، خلف «السنديانة الملكيّة»، وإذا كان منوراً، فهذا يعني أنّه قصر جنّية الغيضة. أتظنّني سأهرب؟ لا، أبداً، فقد تكون هي التي استدرجت مندارين لآتي إليها وأقع في شباكها. وحين ألمحها سأدّعي بأنّني لا أعرف أنّها جنّية الغابة، سأقول لها ببساطة! صباح الخير وبتهذيب وسأسألها: «ألم تر الآنسة بقرةً نتوجاً جلدها بلون المندارين؟». ولا تعجب إذا ما اكتفت بالابتسام لتغويني. ثمّ ستبتعد نحو القصر كما لو أهينت. أوتدري كيف سأعرفها دون أدنى شك؟ ستكون مرتدية الأبيض، كما لو من حرير، أو حتّى أخف من الحرير وأكثر شفافيّة. ذلك أنّ الجنّيات يرتدين الأبيض دائماً، سأكون كمن لم يلاحظ شيئاً، سأعبّر لها عن

امتناني وأتابع طريقي، هذا إذا استطعت. إن استيقظت فمعنى هذا أنّه كان حلماً. وإن لم أستيقظ ولم يكن بمقدوري أن أغادر فهذا يعني أنّني مسحور، عندئذ سأمكث في قصرها بعض الوقت وينبغي ألاّ تغضب. ستعود إلى القرية وستحاول أن تشرح لأمّي وللسيّد بركي أنّني لم أمت، بل سحرتني جنّية، فلا داعي للقلق في شأني، سأمكث هناك سنة أو ربّما سنتين. وهل تعلم يا دينغو، أنّه أمر خطير، هناك خطر الموت، إذ لم يرجع أحد من هناك على الإطلاق. إمّا لأنّهم يسعدون هناك فيمحون من ذاكرتهم كلّ تذكار آخر وإمّا لأنّهم يعاقبون. أمّا أنا فسأهرب، أنا ماكر، لا أعرف الآن كيف ولكنّني سأهرب. من أجل أمّي. فهي ستعرف أنّني لست ميّتاً وستنتظرني، ولكن أنت، يا دينغو، المهم أن لا ينتابك الرعب حين ترى القصر منوّراً».

فجأة بدت الرؤية أوضح، وأمامهما الغابة وكأنّها تشتعل. فتوقّف الفتى والكلب لوهلة.

«لقد وجدنا مندارين، قال فيراغ. لقد أعادها رعاة باكسا، وجدوها وعرفوها».

في وسط الفرجة وفي روعة المغيب كانت مندارين واقفة، قرمزيّة كحبّة كرز.

«إنّها أجمل بقرة في القرية، قال الفتى، ولهذا السبب عرفوها».

وفجأة أحسّ بالأسى لأنّهم وجدوها. وخطر له أنّه كان في استطاعة فيراغ أن يروي كلّ شيء للسيّد مولنار، وكان في استطاعته هو أن يمكث في القصر ثلاث سنوات كاملة.

شارع أشجار الكستناء

دانيلّو كيش

أبإمكانك، يا سيّد، أن تدلّني على شارع «أشجار الكستناء»؟ ألم تسمع بالاسم من قبل؟ لكنّه لا بدّ أن يكون في مكان ما، هنا. لم أعد أذكر اسمه. ولكنّني أعلم أنّه في مكان ما من هذه الناحية. ألا يوجد شارع فيه أشجار كستناء في هذه الأرجاء؟ ولكنّني أعلم، يا سيّد، أنّه لا بدّ أن يكون هنا، إذ يستحيل أن تخدعني الذكريات إلى هذا الحدّ.

أجل كان ذلك قبل الحرب... عند الناصية كانت هناك مدرسة وأمام المدرسة بئر ارتوازيّة. على الأقل أنت لا تحسب أنّني أختلق كلّ هذه الأشياء؟ لقد كنت في هذه المدرسة في المرحلة التمهيديّة وفي حضانة الأطفال وكانت تدعى فاني. بإمكاني، يا سيّد، أن أريك صورة لنا جميعنا: الآنسة فاني، معلّمتنا، أجل وذاك الذي يجلس بقربها، هو أنا، أندرياس سام. وهذان هما آنا، أختي، وفريدي فوكس، زعيم عصابتنا... بلى، يا سيّد، أنا أتذكّر الآن تماماً: لا بدّ أنّ الشارع كان يسمّى شارع «بيم» ذلك أنّني كنت أحد محاربي عصابة البيموليين المرهوبة الجانب. وزعيمنا كان يدعى فريدي فوكس (الملقّب بفريد النحيل) وكان ألمانيّاً.

مذهل، يا سيّد، لولا محادثتنا لما استطعت أن أتذكّر أنّ الشارع كان يُسمّى شارع «بيم» تيمّناً بالجنرال البولوني الشهير. ربّما ذكّرك

هذا الاسم، يا سيّد، بشيء ما: «بيم» شارع «بيم»؟ آه، بلى، بالطبع، أعذرني، فليس بإمكانك أن تذكره لو لم تكن من سكّانه قبل الحرب، ولكن بإمكانك، على الأقلّ، أن تعرف إذا كان هناك شارع في هذه الأنحاء يحيط به شجر الكستناء على الجانبين؟ كانت أشجار الكستناء تلك تزهرُ في الربيع، فيعبق الشارع كلّه بعطر ثقيل ومنفر بعض الشيء، إلاّ بعد هطول المطر. فقد كان عطر زهرة الكستناء يشيع، آنذاك، ممزوجاً بالأوزون، في فضاء الحارة كلّها. أنا أثرثر، سامحني، سيكون عليّ أن أسأل من جديد، لا بدّ أن يكون هناك من يتذكّر هذا الشارع، لقد كان يُسمّى قبل الحرب شارع «بيم» وتحيط به أشجار الكستناء من الجانبين.

ألا تذكره يا سيّد؟ أنت أيضاً؟ اسمع كلّ ما أستطيع قوله بعد هو أنّه، على الناصية، كانت هناك بئر ـ ارتوازيّة ـ أمام المدرسة. وبجانبها، عند المنعطف كانت توجد ثكنة. وكان بإمكاننا، نحن الأولاد، أن نصل إلى هناك. إذ لم تكن حركة السير مزدحمة. وعند المنعطف، بجوار الثكنة، كانت بداية الخطوط الحديديّة (الحافلات الصغيرة الصفراء والزرقاء). آه، بلى يا سيّد، لقد نسيت أن أخبرك بأنّه على طول صفّ أشجار الكستناء إلى الجهة اليُمنى، شيّد، عشيّة الحرب، ملجأ متعرّج تحت الأرض. وجعلنا منه معسكراً لعصابتنا. قد يُعينك هذا التفصيل على التذكّر: لقد شيّد ملجأ كبير. طبعاً، الملاجئ كانت موجودة في كلّ مكان، ولكن على ما أذكر لم يكن هناك شجر كستناء إلاّ في شارعنا. بديهيّ أنّ كلّ هذا ليس سوى تفاصيل، ولكن ما أودّ قوله ببساطة هو أنّني واثق تماماً بأنّ ذاك الشارع كان مُحاطاً بشجر الكستناء على الجانبين، أمّا هذه، يا سيّد، فهذه شجيرات سنط، كما أنّني لا أرى بئراً، هذا ويبدو لي أنّه مستحيل، فقد تكون أنت المخطئ، ولا بدّ أن يكون شارعاً ذاك

الذي كان يُسمّى شارع «بيم»، فهذا الشارع ضيق جدّاً. ولكن أشكرك، سوف أتحقّق من الأمر. سأقرع باباً وأسأل: هل كان هذا الشارع يُسمّى شارع «بيم» قبل اندلاع الحرب، ذلك أنّني أرتاب كثيراً بالأمر، يا سيّد، فأنا لا أظنّ أنّ مثل هذا العدد من أشجار الكستناء قد اختفى فعلاً، فلا بدّ أن تبقى منها واحدة على الأقلّ، فالأشجار، كما تعرف جيّداً، تحيا لفترة طويلة، وأشجار الكستناء، يا سيّد، لا تموت بمثل هذه السهولة.

الحقيقة، يا سيّدتي، أنّني أكاد لا أصدّق عينيّ. لا أحد يستطيع أن يفسّر لي أين ذهبت أشجار الكستناء، لولاك لحسبت أني اختلقتها أو حلمتُ بها. ذلك أنّ الأمر مع الذكريات دائماً على هذا النحو، دائماً لا نكون واثقين. شكراً جزيلاً، يا سيّدتي، سأبحث عن البيت الذي عشتُ فيه. لا، شكراً، أفضل أن أكون وحدي.

يقترب من الباب، وإن كان هذا الباب ليس بابه، ثمّ يقرع الجرس. عذراً، قال بصوت طبيعيّ جداً، أيُقيم أندرياس سام هنا؟ طبعاً لا، أجابت المرأة، ألا تُحسن القراءة؟ هنا منزل البروفسور سمرديل.

هل أنت واثقة من أنّ أندرياس سام لا يقيم هنا؟ قبل الحرب كان يُقيم هنا، أنا واثق ممّا أقول. ربّما تذكرين والده إدوارد سام؟ يرتدي نظّارتين. أو ربّما تذكرين والدته، ماريا سام، ممتلئة الجسم، جميلة ومتحفّظة. أو ربّما أخته، آنا سام، هذه، ودائماً ذلك الشريط المعقود في شعرها. أنظري، أترين، هناك حيث ربعة الخضار كان سريرهما. أترين يا سيّدتي، أنا أذكر جيّداً. وهناك كانت ماكنة الخياطة خاصّة والدته، ماريا سام. كانت من نوع «سنجر» ذات دوّاسة.

أوه، لا تقلقي يا سيّدتي، إنّما أستعيد بعض الذكريات فبعد هذا

العدد من السنوات، تعرفين، يتلاشى كلّ شيء. أترين، بدَلَ طرف سريري هناك شجرة تفّاح، وماكنة «السنجر» تحوّلت إلى حوض ورود. وكما ترين يا سيّدتي ما من أثر لأشجار الكستناء. ذلك أنّ أشجار الكستناء، يا سيّدتي، لا ذكريات لها.

أسمعتِ، لم يعد البيت موجوداً هناك. مكان سريري هناك شجرة تفّاحك. شجرة ذات عقد، ملتوية وبلا ثمار. وتحوّلت غرفة طفولتي إلى ربعة خضار وهناك حيث كانت ماكنة أمّي بات حوض ورود. لصق الحديقة يرتفع مبنى جديد من ثلاث طبقات، يسكنه البروفسور سمرديل. وانتزعت أشجار الكستناء من جذورها، بفعل الحرب أو البشر أو ربّما ببساطة بفعل الزمن.

هذا ما حدث في الرقم 27 من شارع «بيم» منذ نحو عشرين سنة ـ أردت أن أقفز عنها بشطحة غنائيّة. يدخل أبي، بعد شهرين أو ثلاثة من رحيلنا، إلى البيت رقم 27 من شارع «بيم» وينقل كلّ أثاثنا: خزانتان وسريران وماكنة والدتي، وحين تمّ نقل آخر قطعة أثاث، كانت الكنبة ذات الرقّاصات التي تحدث صوتاً، هذا ـ يا سيّدة سمرديل، فأنا ما زلتُ أخاطبك أنت ـ هذا ما حدث: «بعد أن أخرجنا آخر قطعة أثاث، يا عزيزتي أولغا، والتي كانت الكنبة ذات الرقّاصات التي تحدث صوتاً، انهار المنزل كقصر شيّد من ورق اللعب، وأنا نفسي لا أعلم بأيّة أعجوبة نجوت... مقطع من رسالة إدوارد سام، أبي، إلى أخته أولغا سام ـ أورفي).

هناك الآن ربعة خضار، شتول كرّاث جميلة وخضراء لامعة، يا سيّدتي...

ج.م. غوستاف لوكليزيو

VI

ولد جان ماري غوستاف لوكليزيو في مدينة نيس الفرنسيّة في 13 نيسان/ أبريل عام 1940. ينتمي إلى أسرة نشأت في منطقة البروتانيّه (الفرنسيّة) ثمّ هاجرت إلى جزر موريس في القرن الثامن عشر. أنهى دراسته الأكاديميّة في جامعة نيس وحاز شهادة الدكتوراه في الآداب. لم يتوقّف لوكليزيو عن الترحال والكتابة: قصائد، قصص، روايات، منذ أن كان في السابعةِ أو الثامنة من عمره. صدرت أولى رواياته «المحاكمة» في عام 1963 ونالت جائزة رينودو الفرنسيّة للرواية. وفي عام 1980 نال جائزة بول موران الكبرى التي تمنحها الأكاديمية الفرنسيّة لروايته «صحراء».

له أيضاً: «الرحلة إلى جزر رودريغ»، «المنقّب عن الذهب»، «أونيتشا» و«نجمة تائهة». ومجموعة قصصيّة صدرت عام 1989 بعنوان: «ربيع وفصول أخرى» اخترنا منها قصّة: «الوقت لا ينقضي».

الوقت لا ينقضي

ج.م.غ. لوكليزيو

في البداية، أودّ أن أخبركم من كانت زُبيدة، وكم كانت جميلة، لا شبيه لها. ولكن ما أن أهمّ بالقول لا أعرف جيّداً من أين أبدأ. بتّ لا أذكر كيف كلّمتها لأوّل مرّة وبماذا أجابت. أذكر فقط ذلك اليوم عندما رأيتها في السّاحة الصّغيرة على ناصية شارع روسّيتي. الآن تبدّل كلُّ شيء، فما عاد الشّارع الذي أقيم فيه كما كان، فقد أُزيلت كل المباني المتصدّعة وطُردَ منها ساكنوها وبيعت الشّقق السكنيّة الجديدة للألمان والإنكليز. أصبح الآن يعجّ بالحوانيت الجديدة التي تعرض أشياءَ غريبة للبيع كالسجّاد الفارسيّ أو الدنتيلاّ النورمانديّة، والبخور والشّموع المعطّرة. وأصبح كلُّ شيء مختلفاً عمّا كان، الأدراج حيث كان الأولاد يلعبون مُطلقين صراخهم الحادّ، والممرّات والباحات حيث يُنشر الغسيل أمام المنازل، وربّما حدث ذلك لأنّ زبيدة ما عادت هنا. لقد اختفت ليس من الحاضر فقط بل ومن الماضي أيضاً، كما لو أنّها مُحيت، أو كأنّها رمت بنفسها من أعلى جرف أو أنّها وقفت على سطح عمارة وأحدثت ثقباً في سماء كلّ يوم، في أزرق السماء اللاهب، لكي تختفي كما العصافير التي نكاد لا نعثر عليها ميتةً في الشّارعِ على الإطلاق.

زوبيد، ذاك هو الاسم الذي أطلقته عليها. أمّا اسمها الحقيقي

فكان زبيدة. أنا أُدعى داڤيد، ولكي تلهو معي، كانت تسمّيني داود. ولذلك ابتكرت لها هذا الاسم، زوبيد، ولم يكن ذلك أكثر من لعبةٍ بيننا.

لم أعرف بالضبط من أين جاءت. فقد تعمّدت منذ البداية إخفاء ما خلّفته وراءها. وكان الغموضُ يكتنف كلَّ شيءٍ فيها. عندما رأيتها لأوّل مرّة كانت تعبر السّاحة الصّغيرة هناك حيث يتجمّع الصبيان لدى مغادرتهم المدرسة لتقاذف الكرة أو للتباري في فنون الملاكمة. مرّت بهم ولم تلتفت إلى أحدٍ منهم ثمّ غابَت في الأزقّة المُعتمة. ما عدتُ أذكر جيّداً ما الذي كانت ترتديه يومذاك لأنّ التّذكار الذي أحفظه منها هو تلك الصورة التي أعطتني إيّاها ذات يوم بعد أن أصبحنا نلتقي. صورة مدرسة، تبدو فيها جالسةً في الصفّ الأماميّ. وفي هذه الصورة أرى أنّها جميلة جدّاً، وغريبة جدّاً. ثمّة شرارة فيها، في نظرتها الكابية في غور عينيها. ومع ذلك ترتدي تلك الملابس المتهدّلة جدّاً والعتيقة جدّاً التي يرتديها أولاد الفقراء. تنّورة بيضاء، خِيط إليها دائرٌ غريب عند أسفل الركبتين، تنّورة غجريّة، وقميص رجّالي طُوي كمّاه عند المعصمين ليُصبح ملائماً وجوربان منفّران وطويلان من الصّوف الأسود وحذاءان لا كالصندل الذي ترتديه عادةً الفتياتُ الصغيرات، بل خفّان كبيران وقد حُلّت عقدة سيريهما.

لا أعرف كم مرّة تأمّلتُ هذه الصورة مُحاولاً أن أفهم. كأنّ حكاية غامضة ترتسم على هذه الوجوه وكأنّني سأُفلح في فكّ رموزها. لقد جاءتني بالصورة ذات يوم خلال إحدى نزهاتنا في الحدائق العامّة، وعدّدت بالاسم كلّ صبيّ وفتاة ممّن أحاطوا بها، كأنّها طِلْبةٌ تتلوها عن ظهر قلب. «مارتين إيلان، سيسيل سابيّا،

ماري أنطوانيت ليو، ريسة لعبي، ألان باجيس، صوفي جيراردي، ماريز أوبرنيه، ناديا كوهين، بيار بارنو، فضيلة...» ما زلت أذكر بعض تلك الأسماء، كنتُ أصغي بانتباه إلى نبرة صوتها وهي تتلفّظ بها، فقد كان ذلك في عينيّ أعظم ما قد يحدث في العالم قاطبةً.

ما أراه، هو وجهها، وجهها حين كانت لا تزال في ذلك العُمر كما تبدو في الصورة. قوس حاجبيها المُتقن كأنّه خُطّ بالفحم، عيناها الداكنتان العميقتان واللامعتان، وذلك الشعر الأسود حيث يَعْلَقُ غبارُ الضوء. عندما عرفتها كانت لا تزال تجمع شعرها في جديلة واحدة، أثيثة وتتدلّى حتّى أسفل ظهرها. لا أذكر أنّني رأيت شعرها مُسبلاً مرخيّاً على سجيّته، وكنتُ أتخيّل ذلك الشعر الأسود ينهمرُ مطراً على كتفيها وظهرها. في الصورة تبدو جالسة في الصفّ الأمامي، وقد جمعت أطراف تنورتها بين ركبتيها كما تفعل الغجريّات، وأنظارها ثابتة في اتجاه عدسة المصوّر، من غير خجل أو دلال. تنظر لتَحمي نفسها، لتنجو من الأشراك ربّما. في تلك الأيّام، عندما التقيتها في الساحة الصّغيرة التي تقع خلفَ منزل والديّ، كانت لا ترتدي نظّارة سوداء.

إنّها تلك النّظرة، تلك النّظرة بالذات التي لا أستطيع أن أنساها. في الصورة، تجلسُ مُستقيمة الجذع تماماً، يداها مُسندتان إلى ركبتيها، كتفاها عريضتان وَوَجهها مرفوعٌ قليلاً إلى الخلف كأنّه مشدود بثقل جديلتها. جبينها أملسٌ ومقفولٌ بقوسي حاجبيها وفي نظرتها تلتمع شرارة حياتها العاجلة. تنظرُ من خلال غلاف الصورة الصقيل فيتراءئ لي أنّها الوجه الوحيد الذي يرى وسط وجوه غريبة. لطالما حاولت أن أتخيّل كيف تنظر الأخريات إليها، مارتين وصوفي وماريز أوبريه وناديا كوهين، أو كيف تبدو عيون الصبيين الوحيدين

في الصفّ، بيار بارنو ذي الوجه الأشقر الخجول أو ألان الذي ترتسم على وجهه أمارة مشاكسة. كيف استطاعت أن تحيا معهم دون أن يروها؟ ذات يوم، وكنت في منزلها خلال أحد لقاءاتنا الأخيرة، حدّثتني للمرّة الأولى والأخيرة عن «الثانويّة الفرنسيّة»، وعن الأساتذة والمسافة التي كان عليها أن تقطعها سيراً على الأقدام، عند الفجر، قادمةً من ضاحية البؤس، ومساءً في طريق عودتها إلى البيت. وقالت أيضاً إنّها ليس لديها أصدقاء وانّها لا تخاطب أحداً وأنّها تحسب نفسها غير مرئيّة. أمّا أنا فأتأمّل وجهها في الصّورة ولا أرى سواها.

في البداية كنت ألعب مع زبيدة لعبة التخبئة. وربّما كان ذلك بسبب الفقر الذي عاشت في كنفه أيّام طفولتها، أو ربّما لأنّها ما كانت ترغب في معرفة أيّ شيء بشأني أو بشأن أحد. شاهدتها مراراً تعبر الساحة وتتوارى في الأزقّة المُعتمة. وذات مساء، بعد انتهاء الدروس، تبعتها لأعرف عنوانها، لأكشف سرّها. لم تكن تلك أوّل مرّة أتبع فيها أحداً ما في الشوارع. لا بل يسعني القول إنّني كنتُ ذا خبرةٍ ودراية في مثل هذه الأمور. وهكذا استطعت أن أتبع عدداً من الأشخاص المريبين، وعدداً مماثلاً من الفتيات اللواتي لم ينتبهن إلى شيء من هذا القبيل. ولكنّ الأمر كان مختلفاً مع زبيدة، كان مغامرة حقيقيّة استدرجتني إلى السيرِ عبر المدينة من أقصاها إلى أقصاها.

أذكر تلك المسيرة الطويلة، السّاحات التي عبرتها، والانعطافات بين سيّارتين. حتّى وصلنا إلى ما بعد المحطّة، إلى أحياء لم أرها من قبل. كانت أضواء النيون مُشعّة، مقاهٍ وفنادق، أشخاص يترصّدون شيئاً غامضاً، وبغايا متغضّنات العيون. ودائماً أمامي خيال زبيدة التي تسير بخطوات مُسرعة، مُستقيمة القامة، تنّورتها الزّرقاء،

وسترتها القصيرة وجديلتها الطّويلة السوداء التي تتدلى على ظهرها.

إلى أن وصلنا إلى ذلك المبنى العادي، بمحاذاة السكّة الحديد، وذلك الاسم الغريب المُعلّق فوق الباب بحروف من الجصّ: «الأيّام السعيدة» «Happy days». لحقتُ بها بعد أن دخلت، وفي البهو رحتُ أقرأ على عَجَل الأسماء المدوّنة على صناديق البريد فيما موقّت الإنارة يتكّ في انتظام، تلك الأسماء التي أذكرها الآن كأسماء سحريّة، مكتوبة باليد على بطاقات بريستول ملصوقة على الصناديق. بلقيس، ساڤي، سوڤايغو، اشكنازي، أندريه، دلفان. وعلى طرف صفّ الصناديق، ذلك الاسم، بخطٍّ جميل كُتبَ على قصاصة ورق مدرسيّ ثبّتت على الصدوق بمسمارٍ صغير، ذلك الاسم الذي أصبحَ لي أعظم أسماء الكون وأجملها، الاسم الذي أحْسَبُ أنّني طالما سمعته: القنطرة. بعد ذلك بلغت بي الجرأة أن أصعد بعض أدراج السلّم، أدراج غريبة من الأردواز المنهوك من الوسط تفقدك التوازن. أصغيت إلى الجلبة التي تترامى من بئر السلّم، الصيحات وصراخ الأولاد ونخير الحيوانات التي تبثّها أجهزة التلفزيون.

هناك كانت زبيدة تُقيم مع أمّها كما علمتُ فيما بعد. كانتا تعيشان معاً وحيدتين وكانت الأمّ لا تغادر المنزل على الإطلاق لأنّها لا تتكلّم سوى العربيّة. مرّات عديدة لحقت بزبيدة إلى باب العمارة، وبعد ذلك كنتُ أعودُ أدراجي خافقَ القلب، ملتهب الوجه لإحساسي بأنّني ارتكبت خيانة. وربّما كان ما أفعله خيانة بالفعل. ذات مساء، وكان ذلك في بداية الصيف بعد أن أغلقت المدارس أبوابها، استدارت زبيدة وسارت في اتّجاهي. أذكر ذلك جيّداً، كانت تسير بمحاذاة جدار مرتفع من الحجر يوازي خطوط السكّة الحديد، ولم يكن أمامي أيّ مفرّ. دنت منّي ولا أذكر ماذا قالت

لي، ولكنّني أحسَستُ بحُرقةِ الشّمس على الجدار المرتفع الذي ألهبته طوال النّهار، ورأيتُ عيني زبيدة ترمقانني غضباً.

قالت شيئاً من قَبيل:

«لماذا تسير دائماً في أثري؟».

لم أكن راغباً في الإنكار.

«ربّما كنت تحسب أنّني لم أرك تتبعني مثل كلب الكانيش؟».

رمقتني طويلاً على هذا النحو ثمّ هزّت كتفيها وتابعت طريقها. أمّا أنا فمكثتُ مُتكئاً إلى الحائط وشعرتُ بأنني سأقع وبخواءٍ يُجوّفني من الداخل. ومع ذلك، كان لقاؤنا هذا بداية لصداقتنا. لا أدرك جيّداً لماذا تبدّل كلّ شيء. ربّما، في آخر الأمر، أضحكها أن تشبّهني بكلب الكانيش. وذات يوم جاءت ببساطة إلى السّاحة الصّغيرة ودعتني لمرافقتها في نزهة. تنزّهنا في الحدائق المغبرة. كان الوقتُ صباحاً ومع ذلك كان الإسفلت يذوب من شدّة الحرّ. كانت ترتدي تنّورة فاتحة وقميصاً أبيض مطوي الكمّين كما في الصّورة. وخلال الياقة الحاسرة لمحتُ بشرتها السّمراء وتكوير نهديها. كانت عارية السّاقين والقدمينِ تنتعل صندلاً خفيفاً. ومشينا يدي تُمسكُ يدها. وأحسبُ أنّ هذا بالذات ما أحببته عندما أَرَتني هذه الصورة. ولأنّها كانت لا تزال أقرب إلى عهدها ذاك تراءىٰ لي أنّي لمجرّد أن أغمض عينيّ أو أسمع صوتها أو أشمّ رائحتها، أكون معها في تلك المدرسة، مع الآخرين. كأنّي لطالما عرفتها.

كان الصّيفُ في أوج قيظه، وحتّى الأماسي لا تنجو من وطأة الحرّ الشديد. وكنتُ ما أن أنهض من نومي حتّى أراني خارج البيت، فيسخر منّي والداي، ربّما لأنّهما كانا يرتابان بأمري. يظنّان

أنّها مجرّد نزوة عابرة، إحدى فتيات الحي، إبنة الجيران في الطّبقة السفليّة، وتُدعى ماري ـ جو، شاحبة جدّاً ولها شعر أشقر جميل. كانا لا يعرفان شيئاً.

كنّا نلتقي كلّ يوم. ونسير معاً على هَدي خطانا نجوبُ الشوارع، في اتجاه البحر أو نحو الهضاب هرباً من ضجيج العربات. وكنّا نمكث جالِسَين تحت الصنوبرات نتأمّل المدينة البيضاء والضبابيّة. منذ العاشرة صباحاً يشتدُّ الحرّ فتلتصق قميصي المبلّلة بالعرق بظهري. أذكر رائحة زبيدة، لا أذكر أنّني شممتُ رائحة مماثلة، حرّيفة، حادّة، كانت تزعجني في أوّل الأمر، ثمّ أحببتها وأصبحت لا أقوى على نسيانها. رائحة تودّ أن تعبّر عن شيء ما وحشيّ، عن رغبة، وكانت تضاعف خفقان قلبي. كنتُ في السادسة عشرة، في ذلك الشهر، شهر حزيران وبرغم أنّها لم تكن تكبرني إلاّ بسنتين كنتُ أشعر بأنّني لا أعرف شيئاً، بأنّني مجرّد طفل. كانت هي التي تقرّر في كلّ شيء، متى ستراني، إلى أين سنذهب وما نفعله وما نقوله. كانت تعرف إلى أين تذهب. قيظ الصيف والشوارع والصنوبرات تحت أشعة الشمس، كل ذلك كان يُثقل عليَّ ويُسكرني، يجعلني فاقداً للذاكرة.

ذات يوم سألتها:

«لماذا تريدين أن نلتقي؟ ما مرادُك؟».

«هكذا. لا لشيء. لمجرّد أنّني أريد ذلك».

كانت ترمقني بنظرات ساخرة. كنتُ لا أعرف ما الذي أريده منها. فقط أن أملأ منها عينيّ، من عينيها الداكنتين، أن ألمسَ جلدها، أن أحتضن جسدها في ملابسها البيضاء، أن أتنشَّق رائحتها.

في بعض الأحيان كنّا نقصد الشاطئ لكي نَسْبَح، باكراً عند الصّباح، أو عند المساء حين تخلو الشواطئ من روّادها. كانت زبيدة ترتدي تحت ثيابها المايو البيكيني الأسود. تخوّض في الماء دفعة واحدة وتسبح طويلاً تحت الماء ثمّ تعومُ على وجه المياه فتطفو خُصَل شعرها الأسود من حولها. وما أن تعود إلى الشاطئ حتّى تجمعه في جديلة واحدة لتعصره. كانت بُشرتها لامعة، معدنيّة اللون، مقشعرّة بفعل البرد. تشعل سيكارة أميركيّة ونجلس معاً نراقبُ الموجَ إذ يضربُ الضفاف لافظاً فضلاته عليها. كانت السماء محجوبة بالضباب والشمس شديدة الإحمرار. وأذكر أنّني حدّثتها عن مدينة «البندقيّة». «بلى، لا بدّ أنّ الأمر مماثل في البدقية». ثمّ خطر لي أنّ الأمر ربّما كان مماثلاً في بلدها، في سوريا أو لبنان أو ربّما مصر، بلدها الذي لا تتحدّث عنه أبداً، كما لو أنّها لم تولد في أيّ مكان.

بعد ظهيرة ذات يوم كنّا مُمدّدين نفترشُ إبَرَ الصنوبر على التلّة، فتبادلنا القُبَل لأوّل مرّة. كنتُ، من جهتي، أفعل ذلك بتعجّل وارتباك، كما في السينما، أمّا هي فقد قبّلتني على الفورِ بعنف ولسانها يتمطّى في فمي كحيوان. كنتُ خائفاً ومسلوبَ الإرادة حيال تجربتي الحميمة الأولى في ملامسة إنسان آخر. كرّرت ذلك ثلاث أو أربع مرّات ثمّ أشاحت بوجهها. كانت تضحكُ قليلاً، كانت تقولُ ساخرةً منّي: «أنا الشيطان!» وكنتُ لا أدركُ ما تقول. وتراءى لي في نشوتي أنّ طعمَ لعابها في فمي، وكان ضياء ما بعد الظهيرة باهراً. خَلَل جذوع الأشجار، كنتُ أرى المدينة البيضاء والبخار المتصاعِدِ وئيداً من البحر، والتماع آلاف السيّارات في أخاديد الشوارع. ركضت زبيدة بين الأجمات. وراحت تختبئ وراء الأشجار والصخور. كانَ في الغيضة عشّاق آخرون ومتلصّصون

يترصّدون. عند أعلى التلّة كانت السيّارات تعبر مبطئة. واصلت زبيدة ركضها صُعُداً تختبئ بين الفينة والفينة في حفرةٍ أو خلف حائطٍ عتيق. كنتُ أسمع ضحكتها حين أدنو منها. كنت أشتهيها وأخافُ أن تفضحَ شهوتي في عينيّ. وعندما يحلّ المساء كنّا نهبط السلالم المكسوّة ببذور السرو نحو المدينة، فيما طيور الليل تُطلق صياحَها المؤرّق الغريب. وعندما نصلُ إلى أسفل التلّة كنا نفترق إلى الأبد. كانت تلك لعبتها إذ تأنفُ من الارتباط بشيء. وكنت أخافُ أن أفقدها.

ذات يومٍ من تلك الأيّام أعطتني صورتها. وضعتها في المغلّف الأصفر العتيق وأعطتني إيّاها: «خذ، هذه لك. أريد أن تبقيها لديك». فقلت في نبرةٍ بلهاء مُتكلّفة الرصانة: «سوف أحفظها لك مدى العمر». إلاّ أنّ كلامي لم يضحكها. كان بريقٌ غريبٌ يلتمع في عينيها، بريق محموم. وأدرك الآن، حين أنظر إلى الصورة، أنّها كانت تهبُ نَفْسَها، خلَل الصورة، هي. كأنّها لم تحظَ أبداً بحياة أخرى، بوجه آخر. ولذلك هي كلّ ما تبقّى لي منها.

هناك أيضاً ذكرى اللحظات الأخيرة، ماثلة أمام عينيّ، محفورة في داخلي، وبرغم تشوّشها كأنّها لم تكن فعلاً، حتّى أحسب أحياناً أنّني رأيتها في الحلم لا في الواقع. كان ذلك عندما كنّا زبيدة وأنا على سطح تلك العمارة المهجورة، ذات ليلة، نراقبُ نجوم المدينة. كيف أمكن ذلك؟ لم أستطع فيما بعد أن أهتدي إلى العمارة، وما زلتُ حتّى اليوم لا أدرك ما الذي حدث تلك الليلة، وكيف جرت الأمور خلالها. أحسب أنّ زبيدة كانت تعلم ودون أن تحتاط للأمر مُسبقاً، أقصدُ أنّها كانت تعلم بالتأكيد أنّنا ينبغي أن نفترق. والمؤكّد أنّها عقدت العزم على الرحيل قبل لقائنا في تلك

الليلة. كانت عازمة على الرحيل، ستهجر كلَّ ما تعرفه جيّداً، أمّا والدتها الصامتة فينبغي أن تذهب للعمل حيث تجد عملاً، وأنها لن تعود إلى تخشيبة السطح أي شقّتهما في عمارة «الأيّام السعيدة». ومع ذلك، إنّ تذكار تلك الليلة هو الذي يبدو لي بالغ الروعة، والأقرب إلى عالم صورة المدرسة، وأعتقد أنّني كنتُ في تلك الليلة أقربُ إليها من أيّ وقت مضى. قبل ذلك كنّا على الشاطئ نراقب الألعاب الناريّة التي أطلقت لمناسبة 14 تموز/ يوليو. كانت ليلة شديدة القيظ والرطوبة وكانت سُحُبُ الأسهم الناريّة تخلّفُ أثراً يشبه الضّباب فوق البحر. وفجأةً حدثت تلك المشاجرة، على الشاطئ. رجالٌ يتقاتلون في العتمة. عَرَبٌ من جهة ومن الجهة الأخرى بعض عسكريي الحامية المحلّية. تراكض الناسُ في اتجاههم وفي احتشادهم أوقعونا فوق الحصى. كانت الوجوه المشدودة بتشنّجات الحقد تتراءى في انبلاجات الأسهم الناريّة، وسمعتُ دويّ طلقات يتردّد صداها في أجواء المدينة. صراخ نساء وشتائم، وأنا أبحث عن زبيدة، ثمّ تلقّيتُ لطمة على صدغي وترنّحتُ دون أن أقع. سمعت صوت زبيدة تناديني، مرّة واحدة صرخت تناديني باسمي: «داود!»، ولا أدري كيف أمسكتني بيدي وسارت بي بعيداً على الشاطئ. توقّفنا بمحاذاة الجدار الساند. كانت ساقاي ترتعدان. ضمّتني زبيدة إلى صدرها، ورحنا نبحث عن الدرج لكي نهرب. أفسحنا طريقاً لنا بين الجموع المحتشدة قبل عودة الأنوار وركضنا هائمين في الطرقاتِ لا نعرف أين نذهب، ونجتاز الشوارع مشياً مُتعرّجاً بين السيّارات المنطلقة.

في آخر المطاف توقّفنا قبالة تلك العمارة التي لا تزال قيد البناء، هيكل اسمنتي فارغ ومُهمَل وسط أرض بور. تسلّقنا السلالم من طبقة إلى أخرى حتّى وصلنا إلى السطح. كان السطحُ أشبه بصحراء

تكوّمت عليه الأنقاض وبقايا المعادن وأشلاف الحديد. كانت الريح عاصفةً، رياح البحر، تلك التي تَحتُّ صخور ژةتاعغ،دالشاطئ. جلست زبيدة وأسندت ظهرها إلى طرف مدخنة أو ربّما خزّان مياه ما عدتُ أدري بالضبط، وأجلستني بقربها. كان المنظرُ مدوِّخاً. تهبّ الرياحُ المعولة بين الفينة والفينة وعويلها كأنّه يترامى من غور السماء المدلهمّة فوق سطوح المنازل وفوق الشوارع والجادّات العريضة.

كان الليلُ في أوّله. وبعد حرّ كالنهار الخانق، وأنوار الأسهم الناريّة، وصخب الحشد، وتلك المشاجرة المروّعة على الشاطئ، في الظلام، والوجوه المشدودة حنقاً وغيظاً، وانبلاجات أنوار الأسهم الناريّة، وصفيرها والصراخ، أتى الليلُ صحبة السكونِ والدعة، وبدا لي أنّني أصبحتُ في مكانٍ آخر بعيدٍ جدّاً، في بلدٍ غريب، وأنّني سأقدر على نسيان تلك المدينة، شوارعها، نظراتُ أهلها، وكلّ ما يُثنيني عن الرحيل عنها وكلّ ما يؤلمني فيها. أحسستُ برعشة ولم يكن سببها البرد بل الخوف والرغبة. قُبالتنا كانت أنوار المدينة أشبه بفقّاعة حمراء تغلّف الأرض. كنتُ أحدّق في وجه زبيدة، في جبينها وشفتيها وظلال عينيها. كنتُ أنتظرُ شيئاً ولا أعرف ماذا. طوّقتُ كتفيها بذراعي وأردتُ أن أدني وجهها منّي فابتعدت. وأحسب أنّها قالت: «لا، ليس هكذا، وليسَ في هذا المكان. . .». قالت: «ماذا تريد؟» ردّدت سؤالي الذي طرحته عليها قبل ذلك بقليل. «لا شيء. لا أريد شيئاً. منتهى الغبطة أن أكون هنا، وأن لا أرغب في شيء». أحسبُ أنّني قلتُ هذا، ولكن ربّما لم يكن سوى حلم. وربّما قلتُ أيضاً: «حسناً، أصبح لدينا ما نشاء من الوقت الآن». أشياء كثيرة تقال في حياةِ المرء، ثمّ يتبدّد ما قيلَ ويُصبحُ عَدَماً لا أكثر. ذاك، ما كنتُ أودّ أن أسمعه، وسط نشيج

الرياح وهدير السيّارات التي تعبرُ مسرعةً شوارع المدينة، وفقّاعة الأنوار الحمراء من حولنا، وكأنّنا نقيمُ في كنفِ الشفق القُطبي. الهمسُ في أُذُن فتاة، كما في السينما: «أحبُّكِ. يا حبّي». تقبيلها، لمسُ نهديها، مضاجعتها فوق التلال وفي الأرجاء هزيز الرياح، ورائحة الصنوبر والبغوض، تحسّسُ جلدها الناعم والتلذّذ بسماع صوتها الذي يُبحُّ رويداً كما لو أنّها تتألّم. أليس هذا ما ينبغي أن يحدث عندما يقضي رجلٌ ليلته في صحبةِ فتاة؟ ولكنّي كنتُ أرتعدُ، وأصبحتُ عاجزاً حتّى عن الكلام. قالت: «أتشعر بالبرد؟» ضمّتني إليها بعد أن دسّت يديها تحت ذراعي. «أتودّ أن تقبّلني؟» ولامست شفتاها شفتي، وحاولتُ بلساني كما فعلت هي هناك فوق التلّة. فصدّتني بحركة مفاجئة وبدت حانقة. قالت: «أنا أفعل ما أشاء» ونهضت ثمّ مشت إلى حافّة السطح وقد بسَطت ذراعيها كما لو أنّها تريد أن تطير. كانت الريح تتلاعب بثيابها وشعرها، فيما الأنوار الحمراء ترسمُ هالةً غريبة حول جسمها خطر لي أنّها جنّت ولكنّي لم أشعر بالخوف. كنتُ أحبّها. ثمّ رجعت زبيدة واستلقت بجانبي مُلتصقةً بي. قالت: «سأنام. أنا مُتعبة، أنا مُرهقة». استكانت أطرافي وفارقتني الرعدة، قالت أيضاً: «ضمّني إليك بقوّة».

أنا لم أنم. راقبتُ الليل في دَوَرانه. كانت السماء لا تزال غاصّةً بفقّاعة الأنوار الحمراء وتكاد تكون خالية من النجوم. كان ثمّة شيء آخر يدور، يتحرّك. المدينة تزخر بالأصداءِ مثل دارة مهجورة، وزبيدة غارقة في نوم عميق. كانت تُغطّي وجهها بباطن مرفقها وكنتُ أشعرُ بثقل جَسدها على فخذي. لم تستيقظ حتّى حين وضعت سترتي مَطويةً تحت رأسها وذهبتُ إلى الجهة الأخرى من السطح لأبول في الخلاء تحت ريحِ المداخن.

استيقظت عند الفجر. كنت أحسّ بأوجاع في كلِّ عضلةٍ من جسمي كأنّني تعرّضت لضرب مبرّح. افترقنا دون أن نتبادل كلمة واحدة. وعندما عدت إلى المنزل وجدتُ والديَّ في انتظاري لم يغمض لهما جفن. أصغيتُ لتوبيخهما واستلقيتُ على السرير في ملابسي. مكثتُ مريضاً ثلاثة أيّام. بعد ذلك لم أر زبيدة. حتّى اسمها اختفى عن صندوق البريد.

والآن، كلّ صيف يقترب ليس سوى دائرة مُفرغة، لا بل تكاد تكون قاتلة. الوقتُ لا ينقضي. أراني على الدوام هائماً في الشوارع أتبع ظلَّ زبيدة محاولاً كشف سرّها، حتّى ذلك المبنى واسمه السخيف: «الأيّام السعيدة». كلّ هذا أصبح من الماضي البعيد، ومع ذلك، ما زال ينبض في قلبي. لم أستطع أن أثنيها عن الرحيل أو أن أدرك ما يجري أو أفطن للمخاطر التي كانت تُحدقُ بها وتدفعها إلى الرحيل. كان لديّ متّسعٌ من الوقت ولا أُولي أهمّيةً لشيء. لم أحفظ منها سوى هذه الصورة في مدرسةٍ لم أكن حتّى في عدادِ تلاميذها. وتذكار ذلك الزمان حيث كلّ يوم كان النهار إيّاه، نهار واحدٌ في الوجود كلّه، طويل وحارق، وحيث تعلّمتُ كلَّ ما يُرجى من الحياة، الحبّ والحرّية ورائحة الجلد ومذاق الشفاه، والنظرة الكابية، والشهوة التي تسبّب الرعشة تماماً كما الخوف.

بيو سونغ ـ لنغ

VII

«أقاصيص غريبة من مقصورة لياو» عنوان غامض وغريب لمجموعة من القصص الغرائبية كتبها، في القرن السابع عشر، أحد الكتّاب الصينيين بيو سونغ ـ لنغ. وكان الكاتب وضع أكثر من أربع مائة قصّة قصيرة كلّها حول الفراق بين الزوجين وحول الوفاء الذي يكنّه المحبّون بعضهم للبعض الآخر.

في الأقاصيص التي اختارها لوي لالوا ونقلها إلى الفرنسيّة (منشورات كاليغراف) يبرز السحر الخاص الذي تتميّز به هذه الحكايات، من قارة أدبيّة، لا نكاد نعرف عنها شيئاً. بيو سونغ ـ لنغ هنا لا يفارق الحس الغرائبيّ، الشديد البساطة، الذي وسم نتاج الصين الكلاسيكيّة. مزيج من الخرافة والقدريّة والفكاهة المرة كلّها مُجملة في حكمة «التاوية». وفي قصّة «المتأدّب فونغ يانغ» التي ننقل نصّها إلى العربيّة، نموذج للتدليل. مجرّد إشارة إلى «حكاية» تقول لكنّها لا تدّعي قول الكثير. فكاهة من الهجنة الشعبيّة للغو خاص. حكاية من هناك.

الصَّبية الجميلة من مَقصورَة ليَاو

بيو سونغ ـ لنغ

ذهب متأدّب يُدعى فونغ ـ يانغ في بعثة دراسيّة مدّتها ستّة أشهر. وبعد مضيّ عشرة أشهر ولم يرشح عن أخباره شيء، بدأت زوجته تقلق.

وذات ليلة وكانت تهمّ بالاستلقاء في فراشها، رأت ظلاً يتراءى على ستار النافذة المضاء بأشعّة القمر. وقبل أن تتمالك دهشتها، رفع الستار وبدت فتاة جميلة في ثوب بنفسجيّ، شعرها معقود باللآلئ، دخلت وخاطبتها مبتسمة:

ـ أتريدين رؤية زوجك؟ تعالي معي.

والمرأة المسكينة مرتبكة.

ـ لا تخافي، قالت الصبيّة وهي تمسك بيدها.

وها هما تنطلقان تحت ضوء القمر. والصبية تسرع في مشيتها، والمرأة تجد صعوبة في اللحاق بها من الألم الذي يسببه لها نعلاها. فأعارتها الصبيّة نعليها وباتت كأنّها امتلكت جناحين. وسرعان ما شاهدا المتأدّب في طريقه إليهما على ظهر بغل أبيض. وبدا مدهوشاً لرؤية زوجته وعجّل في النزول عن ركوبته ليكلّمهما.

ـ كنت ذاهبة لأراك، قالت.

فأشار، عندها، إلى الصبيّة، ولكن لم يتّسع وقت المرأة للإجابة: إذ وضعت الصبيّة كفّها على فم المرأة ضاحكة وقالت:

ـ لا تسألها، فهي متعبة ولا بدّ أن تكون متعباً أنت أيضاً وكذلك دابتك. تعالا إذن واستريحا قليلاً في بيتي، فأنا أسكن في الجوار، وفي الغد تنطلقان في طريق العودة.

وعلى بعد خطوات وجدوا قرية بالفعل ودخلوا إلى حوش أحد بيوتها، وحين نادت الصبيّة خرجت من الدار خادمة فقالت لها:

ـ الليلة مقمرة فلا داعي للمصباح. ستجدان على هذه السطيحة مقاعد حجر فاقتعداها. فربط المتأدّب بغله إلى مقدم السقيفة وجلسا. وقدمت لهما وجبة خفيفة. فبادرت الصبيّة إلى القول:

ـ بما أنّ طائريّ الفينيق اجتمعا أخيراً بعد طول غياب، إسمحا لي أن أشرب كأساً في صحّتهما.

فجاراها المتأدّب، وسرعان ما أصبحت المسامرة فكهة وشديدة الطلاقة. كان يلتهم الصبيّة بعينيه ولا يتحرج أن يسرّ إليها ببعض الكلام المعسول. وإذا ما صادفت عيناه امرأته بنظرة عابرة، لم يكن يجد ولو كلاماً فاتراً يخاطبها به. كانت عينا الصبيّة تمتلئان بحنو غامر، حتّى أسرّت إليه ببعض التلميحات الزاخرة بالوعود، وكانت المرأة التي تجلس منفردة تتصنّع عدم الفهم. فباتت المحادثة أكثر الفة. وعندما قدّمت الصبيّة كأساً أخرى للمتأدّب قال لها إنّه شرب كفايته. فأصرّت.

ـ أوافق، قال مذعناً، ولكن بشرط أن تنشدي لي أغنية.

ولم تنتظر الصبيّة أن يلحّ عليها فأنشدت وهي تضرب أوتار الأرغن بريشة من عاج:

«عند المغيب أضع زينتي/ وينسل نسيم الغرب من خلل الستائر/

أسمع همساً/ فيهطل رذاذ مزنة نحيلة/ ليس لديّ من أهديه أنشودتي/ أفكاري تشقّ أمواج الخريف/ ولا أراه عائداً/ دموعي تمطر مثل بذور القنب/ هو ساكن أفكاري/ وهو الذي أفتقده ندماً/ لذلك أرمي في الهواء حذائي المطرّز بالأحمر/ وأطلب من القدر أن يعود».

وأضافت:

- إنّها ليست سوى أغنية شعبيّة لا تليق بكما، ولكنّها على الموضة اليوم ولا أجيد غيرها.

كان لفظها شهوانيّاً ونبرتها بارعة الإغواء، فأحسّ المتأدّب باضطراب اجتهد أن يخفيه. عندئذ تصنّعت الصبيّة النعاس، وغادرت المائدة. فنهض المتأدّب وتبعها. وحين وجدته الخادمة تأخّر في العودة أحسّت بالتعب وذهبت للنوم تحت السقيفة. وكانت المرأة التي أضنتها المهانة والألم تفكّر في العودة إلى منزلها لكنّ ظلمة الليل باتت كاملة ولا تذكر طريق العودة. فأخذت تذرع المكان، حائرة فيما تستطيع أن تفعل، وفجأة خطر لها أن تقترب من النافذة. فسمعت ضجّة مصدرها الداخل، ضجّة مكتومة لا تترك للشكّ مجالاً، وفيما هي تصغي بانتباه، تعرّفت، بفضل ذكرياتها الشخصيّة، على صوت زوجها. وكانت هذه القشّة التي قصمتها، كانت يداها ترتعشان وقلبها يخفق بقوّة. وبدل أن تظلّ واقفة مكانها أرادت أن تخرج إلى العراء وتختبئ في حفرة على الطريق لتموت فيها بسلام. عندئذٍ لمحت شقيقها سين - لينغ يعبر على صهوة حصانه في الطريق. رآها وترجّل، وبعد أن سألها: ما الخطب، دخل معها إلى الحوش وهو يشعر بالمهانة. كان باب المنزل مغلقاً، ومن الداخل، وكأنّها زقزقة، أحاديث الوسادة الرقيقة. عندها أخذ سين - لينغ حجراً كبيراً بحجم صاع ورماه عبر النافذة التي تطايرت ستائرها الزجاجيّة نثاراً. وعلا صراخ:

ـ لقد شج رأسه! يا للهول!

وعند سماع هذه الكلمات ذابت المرأة في دموعها:

ـ لم أطلب منك أن تقتله. فماذا عساه يحلّ بنا الآن؟

ولكن سين ـ لينغ حدجها بنظرة غاضبة وقال:

ـ لقد رجوتني لأصحبك إلى هنا فأشفقت على أساك. وها أنت تنحازين إلى صفّ زوجك ضد شقيقك؟ لست في مزاج يسمح لي بأن أمتثل لنزوات امرأة.

وأراد أن يذهب، لكنّها تشبّثت بثيابه:

ـ إذا لم تأخذني معك فماذا سيحلّ بي؟

ولكن سين ـ لينغ دفعها ليتخلّص منها فرماها أرضاً. وفي تلك اللحظة، بالذات، استيقظت وأيقنت أنّه لم يكن سوى مجرّد حلم.

في اليوم التالي ظلّت بكماء لهول المفاجأة حين رأت زوجها عائداً، يمتطي بغلاً أبيض. وحدث أنّه، أيضاً، رأى الحلم نفسه هذه الليلة، وحين روت له زوجته حلمها وجده يتطابق تفصيلاً بتفصيل مع الحلم الذي رأته هي. ثمّ جاء سين ـ لينغ للاطمئنان إلى سلامة صهره، وكان أوّل ما قاله له:

ـ لقد حلمت، الليلة الفائتة، أنّك عدت وها أنت عدت فعلاً. إنّه أمر عجيب.

ـ لحسن الحظ، أضاف فونغ ـ يانغ ضاحكاً، أنّك لم تقتلني بذلك الحجر الكبير.

ـ كيف عرفت؟ سأل سين ـ لينغ.

كانت الأحلام الثلاثة متطابقة. ولكن، لا أحد استطاع أن يعرف من تكون تلك الصبيّة الجميلة.

خوان خوسيه ساير

VIII

خوان خوسيه ساير قصّاص وروائي من الأرجنتين ولد عام 1937، ودرس الحقوق والفلسفة، انتقل إلى فرنسا عام 1968 ويقيم فيها حتّى اليوم ويدرّس في جامعة رين. صدرت له ثلاث من رواياته مترجمة إلى الفرنسية: «مايو الأرجنتيني» و«الفراديس الشاسعة» و«ناديا نادا نونكا»، ومجموعة قصصية واحدة بعنوان: «وحدة المكان» (دار فلاماريون) اخترنا منها هذه القصة.

القشرة اليابسة

خوان خوسيه ساير

غداة نجاحه في امتحان الهندسة، استطاع «توماتيس» أن يحظى بموافقة والده على الاشتراك، لسنة جديدة في نادي الملاحة البحريّة، الأمر الذي اضطرّه لقضاء فترة ما بعد الظهر في مكتب إدارة النادي لإنجاز المعاملات الضرورية لاعادة تسجيله. وبينما كان يجلس في ردهة مكتب الادارة الصغير بانتظار حصوله على بطاقة انتسابه الجديدة، لمعت في رأسه فكرة الرسالة، وما أن حصل على بطاقته حتّى عرّج على المقهى واتصل هاتفياً بـ «باركو». وافق «باركو». وقال إنّ لديه ما يلزم من الشمع ـ لختم سدادة القنينة ـ وأنّه ينبغي أن يلتقيا مساء اليوم نفسه ليناقشا محتوى الرسالة. وهكذا سمع «توماتيس» من غرفته، عند التاسعة تماماً، أي عند هبوط الليل بالتمام، صوت «باركو» الذي كان يحدّث والده في المطبخ ثمّ وقع خطواته وهو يصعد الدرج إلى الشرفة. كانت نافذة الغرفة مفتوحة وبعد أن دخل «باركو» دون أن يلقي التحيّة، أطلق خاطرة حول السماء المكوكبة وقد انحنى لجهة الدرابزون. فكّ زرّين من أزرار قميصه وراح ينفضها عند أسفل الياقة على مستوى الصدر ليجفف العرق الذي بلّلها. نادى «توماتيس» على والدته عبر النافذة وطلب منها أن تعدّ له شراب السنغريا. فقد كان يحظى من جميع أفراد

الأسرة بما يشاء منذ عشيّة البارحة لأنّ نجاحه في امتحان الهندسة أهّله لنيل شهادة البكالوريا. وبينما كانا ينتظران الشراب، أعانه «بروكا» على تعليق نسخة مصوّرة للوحة «حقل قمح وغربان» كان «توماتيس» قد وضعها في إطار، في صباح اليوم نفسه.

ناقشا نصّ الرسالة طوال ساعتين وأكثر وهما يشربان السنغريا التي كان «باركو» يحرّكها بملعقة لكي لا يترسّب السكّر في القعر ولكي يسرّع ذوبان قطع الثلج الصغيرة التي كانت تحدث رنيناً داخل الوعاء المثلّج. وعلى الفور تمّ استبعاد فكرة أن يكون النصّ منظوماً في أبيات من الشعر كما اقترح «توماتيس». وبرّر «باركو» اعتراضه قائلاً: «سيحسب من يقرأها أننا كنّا نتكلّم نظماً». ثمّ استعرضا عدداً من الاحتمالات الأخرى: نبذة عن تاريخ المدينة، أو ربّما فهرس باختراعات العصر، أو ربّما الأحرى أن تكون نوعاً من النبذة الصغيرة عن حياة «كارلوس توماتيس» و«هوراسيو باركو»، أو ربّما مجرّد وصف خاطئ ومتعمّد للجسم البشري من شأنه أن يؤدّي، مستقبلاً، إلى نظرية مغلوطة لتطوّر الحياة. ولبرهة من الزمن استسلما لأغواء هذه الفكرة فراحا يقهقهان لبعض الوقت، وكان ضحكهما من الصخب بحيث أنّ والد «توماتيس» الذي كان يحاول النوم منذ وقت طويل نهرهما من ركنه في الأسفل المعتم، طالباً منهما أن يخفضا صوتيهما. وعندئذ قال «باركو» أنّ الميل الفطري للفكاهة يؤدّي دائماً إلى تسخيف الأمور وأنّ محتوى الرسالة ليس مهمّاً في النهاية، فالأساسي يكمن في الرسالة نفسها، لأنّ المهمّ في كلّ رسالة ليس في ما تقوله بل في كونها تدلّ على وجود بشر قادرين على كتابة الرسائل. وقال أنّ الرسالة التي تعلّق أهمية بالغة على مضمونها تفقد صفتها كرسالة وتصبح خبراً. «فأفضل ما يمكن أن تقوله الرسالة هو، بالتحديد، رسالة. إذن، حتّى لو كانت كلّ

الأعراف تنصّ على أننا ينبغي أن نكتب: النجدة! فأنا أقترح أن نكتب فيها: هذه الرسالة أو ببساطة: رسالة». أطرق «توماتيبس» لبرهة مفكّراً وخلص إلى الموافقة ثمّ لم يلبث أن طرح السؤال التالي: من يكتب الرسالة؟. «إذا أخذنا بعين الاعتبار أنّ الفكرة هي فكرتك، قال «باركو»، وأنّ هناك أسباباً عديدة تدفعني للظنّ بأنّك ستصبح كاتباً محترفاً، فأنا أقترح أن تكون أنت كاتب النصّ». وعندئذ تناول «توماتيس» ورقة بيضاء ووضعها على الطاولة تحت نور لمبة المكتب، ومسح ريشة القلم الحبر واختبر صلاحيتها على هامش دفتر مسائل الهندسة، ثمّ ببطء وعناية بالغة كتب بحروف بدايةٍ طباعية سوداء كلمة: رسالة، ونظرات «باركو» المثبتة على يده وهي تمسك القلم الحبر تلهب كتفه. وبينما كانت اليد تزحف، من اليسار إلى اليمين، كانت الورقة المستطيلة البيضاء، تشدّ عن البياض المفرط غير التميّز لحواف الكواكب، عن الأفق المسطح والغفل، وقد اختارتها يد عمياء من بين الأوراق المتشابهة التي تقعي، مغبرة وبكماء في درج المكتب، حتّى كتبت عليها العبارة كاملة، واضحة ومتّسقة، وعادت ذات الورقة وامّحت من جديد وقد لاشتبها التماعات الرسالة الغامضة.

في اليوم التالي، نهضا عند بزوغ الفجر، واتصل «توماتيس» بـ «باركو» هاتفياً ليخبره أنّه سيغادر خلال دقيقة واحدة ليستقل الحافلة، وأنّه من جهته يستطيع اذن انتظار قدوم الحافلة التالية رقم (2) لأنّه سيجده فيها، ثمّ لاحظ عبر الباب حين وصل إلى الناصية حيث منزل «باركو»، أنّ صديقه أحضر الرفش والقنينة والشمع. أما هو فقد أحضر من جهته علبة سردين، وبعض الطماطم والدرّاقن وقنينة نبيذ كان وضعها للمناسبة في الثلاّجة. أمّا الرسالة فكان يحفظها، مطوية بعناية، في جيب قميصه الأيمن. وصلا إلى النادي وارتديا

لباس السباحة بعد أن وضعا كلّ حاجياتهما في جراب من الكتان باستثناء الرفش، ثمّ وضعا الجراب والرفش في جوف الزورق ثمّ سحبا الزورق إلى الماء. جذّف «باركو» مبتعداً عن رصيف النادي وعن الجسر المعلّق وتوغّل بين الجزر وبين روافد النهر المختلفة محاذياً الضفاف التي تقترب أحياناً، وعندما شرع أخيراً يناور ببراعة للاقتراب من الضفّة كانت الساعة قد جاوزت الحادية عشرة ظهراً. كان «باركو» محتقن البشرة وينضح عرقاً. كانت الشمس على أشدّها، قائظة، ولهبها يخترق أغصان أشجار السرو المتباعدة والمتراخية بطبعها ويعكس دوائر من الضوء على صفحة المياه. تركا الزورق في الظلّ ـ وفي قعره بقع ضوء ـ وتوغّلا في الجزيرة وقد حملا الجراب والرفش. جالا في أرجائها نحو نصف ساعة. وعثر «باركو» على ثعبان وبضربة رفش واحدة قطع له رأسه. ثمّ انتقيا المكان.

كان عبارة عن فرجة محاطة بدائرة من الأشجار التي لا تتشابك أغصانها من فوق لتشكّل قبة من الظلال. وكانت الشمس قد ألهبت الأرض، والعشب، في تبعثره، مال إلى الاصفرار. شرع «توماتيس» يحفر: أحدثت الضربات الأولى طرقاً متردّداً ونبا الرفش مراراً عن الأرض محدثاً فيها بعض الخدوش إذ يتطاير نثار من قشرتها اليابسة، ولكن سرعان ما تهاوت القشرة الخارجية وبدا تراب الجوف الأثيث، الرطب القائم، والذي كان يثقل على ذراعي «توماتيس» كلّما أراد أن يرفع جرافة منه ويفرغها فوق الكومة التي ارتفعت بجانب الحفرة. وبعد وقت قليل ناب عنه «باركو» في الحفر وراح «توماتيس» يراقب عمل صديقه وقد اتكأ على جذع احدى تلك الشجرات البخسة لاهثاً؛ حفرا حفرة بعمق مترين تقريباً وباتساع يكفي لطمر رجل واقف فيه. وبعد ذلك جلسا في الفيء وطوى «باركو» الورقة بعناية

وأدخلها في القنينة ثمّ وضع السدّادة وراح يضربها براحة يده لتدخل باحكام وهيّأ الشمع وأعواد الثقاب. أشعل ثقاباً وراح يذوّب قضيب الشمع بلهب الشعلة وهو يحرص على أن تتساقط القطرات السائلة على عنق القنينة وعلى طرف السدادة المدوّر. واستعمل عدداً كبيراً من أعواد الثقاب. كانت نظرات «توماتيس» تتنقّل بالتعاقب بين شعلة عود الكبريت حيث يذوب الشمع (وكان أحياناً يتعقّب بعينيه سقوط القطرات الحمراء التي تصدر فرقعة قبل أن تلتصق بعنق القنينة، و«باركو» يعمد إلى فلشها وتكثيفها بطرف القضيب الرخو) وبين جوف القنينة حيث كان باستطاعته أن يرى، من خلال الزجاج المائل إلى الخضرة، الورقة المطوية مراراً والتي أصبحت في شكل شريط جامد تستند بأحد طرفيها على قعر القنينة فيما الطرف الآخر يتكئ على جدارها الأخضر، في وضع مائل. وحتّى إذا رجّ «باركو» القنينة كانت الورقة لا تتحرّك من موضعها.

حين فرغ من عمله هذا، رفع القنّينة وأمسكها بقدر من العناية والرقّة بحيث تساءل «توماتيس» ما إذا كان تصرّفه هذا ليس سوى تهريج آخر مما اعتاد عليه، ولكنّه حين رآه يسير نحو الحفرة حاملاً القنينة بيديه الاثنتين ثمّ يركع على الحافة وينحني وقد امتدت ذراعه إلى جوفها ليرافق القنينة ما بوسعه قبل أن يتركها على أقرب مسافة ممكنة من القعر حتى كاد جبينه يلامس التراب، حين رأى «توماتيس» هذا أدرك أن «باركو» لا يتصرّف على النحو بدافع الدعابة وأنه، إن لم يذهب إلى حدّ الخشوع الشعائري، فهو على الأقلّ مستعدّ لدفع الأمور إلى حدّها الأقصى. ترك «باركو» القنينة إذن تهوي إلى القاع وتمعّن في حصيلة سقطتها ووجد أن لا بأس، فنهض وراح يهيل عليها بجرافات التراب. ثمّ ناول «توماتيس» الرفش وحين طمر التراب الثقب أخذ منه الرفش وراح يسوّي

الأرض لكي لا يبقى أثر لما صفاه. «إذا تساقط المطر هذه الليلة، قال «باركو» حين فرغ من عمله وقد اتكأ على عصا الرفش مجففاً عرضه، فلن تجد في الصباح التالي أثراً لمرورنا بهذا المكان». وقد أمطرت. كان «توماتيس» يصغي، في العتمة، إلى المطر ينقر السطح، وقد استلقى في الغرفة المطلّة على الشرفة. وبعد ذلك، وضعا الرفش من جديد في قعر الزورق، وسبحا قليلاً، وأكلا السردين والدرّاقن وشربا قنينة النبيذ ثمّ تقيّلا لبعض الوقت في فيء الأشجار. ثمّ عادا أدراجهما وهما يجذّفان على مهل وبالتناوب، في اتجاه مجرى المياه ووصلا في ساعة متأخرة من النهار حتّى أنهما حين أرسيا الزورق عند رصيف النادي الذي اجتاحته عاصفة من البعوض، كان الوقت مساء أزرق وصاخباً بالضجيج والأصوات التي كانت تترامى من الشاطئ والمقهى المضاء.

استقلا الحافلة وسارع «باركو» إلى القفز منها حين وصل إلى الموقف المحاذي لمنزله وسرعان ما اختفى وراء الباب. أما «توماتيس» فأخذ دشّاً بارداً وتناول بعض الطعام ثمّ ذهب لينام. وما لبث أن غفا. أيقظته رائحة المطر وليس القرقعة التي كان يحدثها في تساقطه على السطوح الدافئة، ثمّ طراوة المياه الكثيفة، كأنها تهبّ من النافذة المفتوحة. وحين عاد إليه صفاء يقظته عاود التفكير في القنينة المطمورة في عتم الثقب، مثله تماماً، هو الذي تكتنفه عتمة العالم وتساءل عمّا يكون من مصير الرسالة. إذ قد يحدث أن تكون لغة من سيجدونها في المستقبل مختلفة عن لغتهما، أو قد يحدث أنّهم يتكلّمون نفس اللغة وتكون عبارة «رسالة» قد اكتسبت معنى مختلفاً عن المعنى الذي أراده منها، وربّما أصبح معناها «الخبر» الذي أراد «باركو» أن يستبعده، أو قد يحدث أن لا يجد القنينة أحد وأن ينقرض الجنس البشري وتبقى مطمورة إلى الأبد في باطن

كوكب مقفر وقاحل يهوّم في الفضاء المعتم. لكنّه في النهاية وقبل أن يعود إلى النوم فكّر أنّه حتّى لو استطاع بشر أن يعثروا على الرسالة ويفهموا معنى العبارة فعندها لن يكون «باركو» ولا «توماتيس» فيه، وكذلك ضفاف المياه المتلألئة وتموّرات الزورق الخفيفة عند كلّ ضربة مجذاف، والحانة المضاءة التي لمحاها من مكانها على الرصيف المركون في كنف العتمة الزرقاء، ولا رائحة المطر والطراوة التي كانت تنسّم، في تلك اللحظة، مع كلّ هبّة ريح.

آرفو ڤالتون

IX

آرفو ڤالتون، كاتب من جمهورية أستونيا (الاتحاد السوفياتي سابقاً). ونشرت قصّة «فحص المرونة» في «ليتر أنترناسيونال» (الآداب العالمية)، عدد 25، صيف 1990، ص 51 ـ 52.

فَحْصُ المرونة

آرفو ڤالتون

ذات صباح وما أن فتحت عينيها، أحسّت «ڤيڤيان» بأنّ شيئاً غريباً يحدث في داخلها. تفحّصت سبّابة يدها اليسرى ثمّ أمسكتها، على مهل، بيدها اليمنى وعقدتها. وراحت تتأمل بإمعان هذه الاصبع المعقودة ـ كما لو أنّها رأت عمارة تنبثق فجأة من باطن الأرض؛ ولم تبد في عينيها أي علامة من علامات الذهول أو القلق، بل مجرّد فضول لا يخلو من تكاسل.

فكّت عقدة سبّابتها، وأمسكت بإحدى قدميها ورفعت ساقها بلا عناء حتّى أصبحت عمودية وثنتها خلف عنقها، ثمّ أعادتها إلى مكانها وقد جعلتها تنزلق من أعلى الظهر حتّى أسفله. تفحّصت المفصل حيث يتحوّل الورك إلى فخذ وأيقنت أنّ لا أثر فيه لأي التواء. انحنت إلى الأمام ودسّت جذعها بين ساقيها المنفرجتين وقد أبقت رأسها مشدوداً إلى الخلف ثمّ انتصبت واقفة على قدميها وقد انسلّت بجسدها إلى الجهة الأخرى. ومرّة ثانية لم تر أي أثر على بطنها. فهي في إقدامها على هذه الحركة كانت تشعر بأنّ ساقيها النحيلتين والقويّتين قد أصبحتا غريبتين عن جسدها بل وتنتميان إلى جسد آخر. ففي كلّ اصبع قدم كان يتراءى لها فم يبتسم وكل واحد من هذه الأفواه يرطن بلغة مختلفة.

تحسست «ڤيڤيان» أصابعها وذراعيها وبطنها وعصعصها، وبدت لها جميعها حقيقية سوى أنها فقدت صلابتها المعتادة. خلعت قميص نومها على عجل ووقفت أمام المرآة بثوب حوّاء تتفحّص جسمها ورأت أنّ كلّ شيء في مكانه الطبيعي: ثدياها المفلطحان، وضلوعها البارزة، وفرجها الواطئ وفخذاها النحيلتان... إلاّ أنّ شيئاً ما طرأ على تكوينها في تلك الليلة، ولكن ماذا؟ أليس الجهل أسوأ ما في الأمور؟

ضغطت «ڤيڤيان» على صدغيها: أرادت أن تعرف ما إذا كانت لا تزال في كامل رشدها بعد هذا التحوّل وما إذا كانت لا تزال ترى الأشياء على جاري عادتها في السابق. ألا زال العشب أخضر في عينيها، والسماء زرقاء؟ ألا زالت تعرف اسمها وهويّتها؟ ألا زالت مولعة بالذكور؟ ألا زالت تمقت الاستعمار والشرور السياسية الأخرى؟

لم تكن تعلم أيّ شيء من كلّ هذا.

عاودت «ڤيڤيان» ليّ أطرافها كلّها مرّات ومرّات. إنها لا تحلم: كلّ ما فيها قابل لأن يلوي في أي اتجاه وبلا أدنى مقاومة. وبات شغل الفتاة الشاغل أن تحافظ على سيطرتها الدائمة على جسمها لكي لا يلاحظ الآخرون امتلاكها لمثل هذه الميزة الفريدة.

اغتسلت وارتدت ملابسها وتبرّجت بعناية ودلفت إلى القفير الاجتماعي. وفي الطريق صادفت أناساً تعرفهم فابتسموا لها لأنها كانت جميلة كعادتها ولم ينتبه أحد لما حلّ بها.

كانت «ڤيڤيان» تسير بخطى موقّعة متصلّبة الظهر ومستقيمة وذراعاها مسبلتان كأنّهما قد يبستا. لا حركة ولا لفتة مباغتة، إذ كان عليها أن تحافظ على رصانتها.

مكثت على هذه الحال طوال أسبوع، بل أسبوعين، وذات يوم، في الحافلة، سهت عن نفسها: التفّت ساقها اليسرى حول عنقها، من الخلف، ثمّ اندسّت تحت ذراعها اليمنى، بينما بدت «ڤيڤيان» غارقة في التأمّل الذي لم يكن في الحقيقة سوى موقف لا مبالاة تامّة.

والغريب أنّ أحداً لم يبد امتعاضه من جلستها. باستثناء رجل، في سنّ متقدّمة، حاد بنظراته إلى ما بين فخذيها حيث، في الحقيقة، لم يكن هناك ما يرى بسبب عدد من الكولّونات التي كانت ترتديها الواحد فوق الآخر: كما أنّ جلستها التي تشبه أوضاع التمارين السويديّة لم تكن لتحفّز المخيّلة بأيّ وجه. قال رجل آخر بنبرة هادئة: «يوغا، يوغا».

سرعان ما فطنت «ڤيڤيان» إلى وجه الغرابة في جلستها. فأعادت، بحركة خاطفة، ساقها المنفرجة إلى جانب الأخرى كما ينبغي لفتاة شابّة حسنة التربية ونظرت إلى الخارج بغير اكتراث. إلاّ أنّ هذه الحيلة لم تسعفها كثيراً لأنّ القدر شاء أن يكون في الحافلة، في تلك اللحظة بالذات، «امبريزاريو» مكلّف بالبحث عن المواهب الجديدة للعمل في سيرك ذاعت شهرته في العالم بأسره. وراح الامبريزاريو يلاحق «ڤيڤيان» منذ لحظة نزولها من الحافلة.

«قدراتك الفريدة...» أسرّ الامبريزاريو في أذنها أمام حانوت الخبّاز على مقربة من سينما الصداقة.

سارت «ڤيڤيان» وكأنّها لم تسمع وسلكت، بخطى سريعة، شارع «كارجا» في اتجاه ساحة القصر البلدي. ولكن أمام باحة الأسواق التجاريّة استطاع الامبريزاريو أن يتحيّن فرصة للاقتراب منها وقال:

«لقاء كل عرض تقدّمينه تحظين بقطعة سكّر...».

دلفت «ڤيڤيان» إلى ممرّ «سايا». وأمام متجر القهوة حاول هذا الشخص المتنفّذ أن يقترب منها مرّة أخرى. هرعت «ڤيڤيان» إلى الداخل وطلبت فنجان قهوة. وبينما كانت تهمّ بارتشاف أوّل جرعة على البار استطاع الامبريزاريو أن يندس بجانبها وهمس:

«أضواء المسرح والشهرة في انتظارك...».

مكثت «ڤيڤيان» متمالكة نفسها كأنّها لم تسمع شيئاً. وقبل أن تمسّ قهوتها غادرت المقهى وهرعت راكضة من شارع «الونغ» في اتجاه برج «مرغريت». وما لبث الامبريزاريو أن لحق بها وهو يواصل محاولاته الشاذّة. وصرخ بها:

«سوف تتحدّث عنك الأجيال المقبلة في الصحف...».

وعندما أصبحا بمحاذاة كنيسة «أوليڤيست» استدارت «ڤيڤيان» نحوه فجأة ونفخت في وجه الرجل. فتلاشى هذا الأخير دون أن يترك أثراً ولم يره أحد بعد ذلك.

«ما حاجتي لاستخدام جسدي وملكاتي الجسمانية لكسب المال؟» سألت الفتاة في سرّها. الجميع يراقب حركاته وتخفي قدراته ما دام لا يحتاجها. وينبغي ألاّ تظهر، هي أيضاً، ما لديها من قدرات إذا كانت لا تريد فعلاً أن تطلب منها دائماً المزيد والمزيد من الأشياء.

كانت تقصد مركز امتحانات القبول للوظائف العامة. ويبدو أنّ ما ستقوله، والصيغة التي تستخدمها لما يقال، يكتسبان أهميّة بالغة في تحديد مستقبلها.

ينبغي أن نكون دائماً قادرين على التصرّف وعلى التعبير وفق الصيغ الملائمة. فالزمان والمكان والظروف تتبدّل باستمرار، أمّا الانسان فينبغي أن يتكيف مع هذا التبدّل وأن يكون ذكيّاً وعاقلاً وأن يحافظ على هدوئه وتمالكه نفسه في سبيل تحسين الظروف التي يحيا في كنفها.

كانت قاعة الامتحان أشبه بعلبة فارغة، تغطي جدرانها، من أعلاها إلى أسفلها، ملصقات مختلفة ومن كل نوع. جيء بالفتاة في جحر مدوّر إلى وسط القاعة ومكثت هناك واقفة. أخرج الفاحص من جيب سترته شيئاً يشبه القلم، وأراها الشيء وسألها:

ـ «ما هذا الشيء؟»

حتّى أمام الأشياء العاديّة لا نعرف يقينا إذا كانت الأشياء هي حقاً كما تبدو لنا، ولا وفق أي اصطلاح أو معايير أعطي هذا الاسم لهذا الشيء ولا حتّى ماذا يعني، بصورة عامة، الاسم المعطى لشيء ما. وكان على «ڤيڤيان» أن تعطي الاجابة بسرعة.

ـ «إنّه قلم.

ـ لا، إنّه مسدس، قال الفاحص.

ـ بلى، إنّه مسدس»، ردّدت «ڤيڤيان».

مهما كانت الظروف يجب أن يكون رأي الفاحص هو الغالب. فهذا ليس أوّل امتحان تخضع له.

ـ «لا، ليس مسدساً، بل مكنسة».

ـ بلى، هو الآن مكنسة». قالت «ڤيڤيان» في محاولة لتبديل صيغة الاجابة لكي لا تردّد حرفياً ما يقول الآخر. ولكنّها برغم حرصها هذا ارتكبت خطأً، لأنّ الفاحص قال لها:

ـ لا، ليس «الآن»، إنّه مكنسة منذ أن كان، ماذا نصنع بمكنسة؟

ـ نكنس الأرضيّة.

ـ إجابة سخيفة! انظري إلى هذا القضيب الصغير، فهل بإمكاننا أن نكنس الأرضيّة بواسطة هذا الشيء؟

ـ لا، بالطبع لا. ومع ذلك فهو ليس في النهاية الشيء الوحيد

الذي لا يتطابق ووجهة استخدامه». قالت الفتاة في محاولة لتبرير اجابتها. لم يسبق لها في امتحاناتها السابقة أن ارتكبت هذا القدر من الحماقات ولكن ربّما كان ذلك بسبب من تسامح الفاحصين آنذاك.

ـ «لأي غرض يستخدم مثل هذا الشيء؟ سألها الفاحص وهو يدسّ القلم في أنفها.

ـ يستخدم للكتابة.

ـ صحيح، قال الفاحص، ماذا نسمّي اذن القضيب القصير الذي يستخدم للكتابة؟

ـ قلم، أو مسدس أو حتّى مكنسة، حسب الحاجة».

مكث الفاحص ساهماً للحظات وامتنع عن ابداء رأي حول صحة هذه الاجابة. وضع القلم في جيبه واقترب من الحائط:

ـ والملصق، ما هو لون الملصق؟

كان الحائط مغطى بملصقات متنوّعة الألوان. وكانت «ڤيڤيان» تعلم أنّ ما ينبغي أن تعوّل عليه هو سرعة الاستجابة وليس الدقّة في الاجابة.

ـ «أزرق.

ـ ليس أزرق، قال الفاحص وهو يضع اصبعه اتفاقاً على أحد الملصقات الذي، للمصادفة، كان لونه أزرق.

ـ طبعاً، ليس أزرق». قالت «ڤيڤيان».

ففي مثل هذا الموقف لن يجد أحد، مهما حاول، إجابة أكثر ذكاء. فما يتمّ اختباره هنا ليس الذكاء بل الطبع.

ـ ما لونه اذن؟

ـ أحمر.

ـ لا، من المؤكّد أنّه ليس أحمر، قال الفاحص وهو ينظر إلى الملصق. فأنا أرى أنّه أخضر.

ـ في مثل هذه الحال، هو أخضر فعلاً. إذ يصعب أن نميّز اللون إلاّ إذا اقتربنا منه.

ـ لقد بدأت الأمور تستقيم بالنسبة لنجاحك، قال الفاحص بشيء من الوقار.

ـ من هو الأكثر جمالاً؟

ـ من تُباع صوره أكثر.

ـ من هو الأكثر ذكاء؟

ـ من يُلقي الخطب الأطول.

ـ من هو أفضل رجل في العالم؟

ـ بابا نويل، لأنّه يوزّع الهدايا على الأطفال».

وبما أنّ الفاحص كان قد أدرك أن الفتاة تعرف الأجوبة الصحيحة كفّ عن مناكفتها.

ـ ما هي قاعدة الاقتصاد؟

ـ التقدّم.

ـ من أين تهبّ الرياح؟

ـ من حيث يسود الصقيع. فهي تبحث عن الدفء.

ـ ما الذي يقودنا؟

ـ الفكرة.

ـ ما الذي نحتاجه لنأكل؟

ـ الشوكة والسكّين. ولكن بإمكاننا الاستغناء عنها حين نعثر على ما نأكله.

ـ ماذا تعرفين عن علم الغدد الصمّ؟
ـ لا شيء.
ـ أحسنت! أتهضمين طعامك بوعي؟
ـ أحياناً بلى، وفي معظم الأحيان لا.
ـ هذا سيئ جدّاً!
ـ لماذا حبّة البطاطا مدوّرة؟
ـ لم تعد مدوّرة منذ زمن بعيد.
ـ ولو قلت أنا انها كذلك؟
ـ عندها تكون مدوّرة.
ـ هل سبق لك أن أقسمت زوراً؟
ـ بالطبع.
ـ تنتقلين اذن إلى المرحلة التالية من الامتحان.

جلست «ڤيڤيان» على حافة المحجر المدوّر. دخل فاحص آخر وقال مغتبطاً:

ـ آه! صباح الخير يا ڤيڤيان! نحن نعرف كل شيء عنك.
ـ «غير ممكن» قالت ڤيڤيان بتهذيب.

ابتسم الفاحص وبدا أنه أرضى غروره.

ـ «بامكانك الانتقال إلى المرحلة التالية».

مكثت ڤيڤيان في مكانها.

أطلّ رجل آخر برأسه عبر فتحة الباب وقال:

«بامكانك أن تتقدمي إلى الاختبار النهائي».

دخل الفاحص الأوّل من جديد وأخرج من جيبه القضيب الصغير الذي يشبه القلم وسألها:

ـ «ما هذا؟

ـ إنّها الحياة» قالت ڤيڤيان.

ربّما كانت مخطئة، فكيف يمكنها أن تعرف؟

ـ هل يعقل أن يكون الأخضر بنيّاً؟

ـ أوه! بلى، بلى، إذا كان ينبغي أن يكون كذلك، فقد يحدث أن يكون كذلك.

ـ ولكن إذا كان ممكناً، فهل هو ضروري؟

ـ لست أدري.

ـ أحسنت، قال الرجل. لقد اجتزت الاختبار. أما من شكوى تودّين مصارحتنا بها؟

ـ بلى. منّي أنا نفسي.

ـ هل لك أن تفصحي عن الأمر بدقّة؟

ـ أنا لا أتمتّع بالقدر الكافي من اليقظة.

ـ إزاء من؟

ـ إزاء نفسي.

ـ إنّها نقيصة يمكن الشفاء منها. تهانيّ».

غادرت ڤيڤيان المبنى. لحق بها الفاحص الآخر ليقول لها بصوت لاهث:

ـ «لقد أظهرت لنا أنّك تمتلكين قدرات استثنائية وفريدة. ألا تودّين أن تعملي معنا كفاحصة؟»

توقّفت ڤيڤيان وتمعّنت في وجه الرجل وقالت:

ـ «ولكنكم لا وجود لكم».

تضاءل الرجل، وصار أصغر فأصغر حتّى اختفى كليّاً. أو ربّما لا، من يدري؟

خلال أسبوع أو اثنين، عادت ڤيڤيان إلى مجرى حياتها العاديّة. وجهدت في أن تظلّ متيقّظة حتّى جاء يوم غفلت فيه عن نفسها مرّة أخرى. فبعد أن جلست على أحد مقاعد الحافلة مرّرت ساقيها خلف عنقها. ولكنّها لم تفلح في الأداء كسابق عهدها. فقال لها الناس:

«أنت تصرّين، يوماً بعد يوم، على أنّ الأسود أبيض، فكيف إذن تجدين صعوبة في تمرير ساقك خلف عنقك؟»

لا حدود للؤم الناس وحسدهم. أو ربّما كان العكس صحيحاً: في الواقع أنّ الناس رائعون. لو أنّهم فقط يجهدون أقلّ في سعيهم للعيش كبشر، ويجهدون أكثر في سعيهم للعيش كحيوانات! ذلك أن الحيوانات لا ترتكب أبداً المجازر المجّانيّة ولا تلوّث بيئة العيش ولا تكذب. ووسائل تَخَاطُبِها أقلّ مرونة بكثير من وسائل البشر.

عادت ڤيڤيان إلى منزلها ونامت. ورأت في أحلامها كلّ ما نراه واقعاً وبديهيّاً. كان عصعصها يؤلمها ولم تكن قادرة على ربط شريط حذائها. كانت تودّ أن تقول ما هو صحيح إلاّ أنّ صوتها يخونها.

فاتسلاف هافل

X

قبل أن يصبح فاتسلاف هافل رئيساً للجمهوريّة في تشيكوسلوفاكيا (سابقاً)، كان في السجن، ولعلّ المسرحيّة القصيرة (جدّاً) التي ننقلها هنا إلى العربيّة أحد مشاهد التجربة التي خاضها الكاتب /المعارض/ السجين قبل أن يصبح الكاتب/ الرئيس وبعد أن زالت ديكتاتوريّة الحزب الواحد.

هذه المسرحيّة آخر ما كتبه فاتسلاف هافل، وفيها بعض الضوء على تجربته كاتباً نحسب أنّ قارئ العربيّة لا يعرفه.

الغلطة

فاتسلاف هافل

الشخصيات: اكسيبوي كنغ. ـ السجين الأوّل. ـ السجين الثاني. ـ السجين الثالث.

عند فتح الستارة نرى باباً إلى يسار المسرح وفي فتحته يقف، بتزاحم، السجناء الأوّل والثاني والثالث وكذلك كنغ الذي يتقدّمهم، وكلّهم حليقو الرؤوس وعلى أجسادهم وشوم مختلفة ـ وكنغ يحمل الأكثر منها ـ يرتدون زي السجن ويحدّقون في اكسيبوي. وإلى يمين المسرح سرير معدني من ثلاث طبقات يجلس اكسيبوي على أعلاها، وهو أيضاً حليق الرأس، يرتدي بزّة السجن ولا يحمل أيّ وشم. اكسيبوي حديث العهد في السجن، ينظر بشيء من الرهبة إلى المجموعة في فتحة الباب. فترة صمت مشحون بالتوتّر.

ـ كنغ (مخاطباً اسكيبوي):

يبدو أنّك دخّنت بعد إشارة النهوض.

(فترة صمت قصيرة).

ـ السجين الأول (مخاطباً كنغ):

لقد دخّن، أنا رأيته.

ـ كنغ (مخاطباً السجين الثاني):

أهذا صحيح؟

ـ السجين الثاني: بالتأكيد. .

ـ كنغ (مخاطباً اكسيبوي):

ألا تعلم متى نُستدعى إلى الفطور؟

ـ السجين الأوّل (مخاطباً كنغ):

إنّه يعلم جيّداً أنّ ذلك بعد عشر دقائق من إشارة النهوض.

ـ كنغ (مخاطباً السجين الثاني):

أيعلم ذلك؟

ـ السجين الثاني:

طبعاً! إذ يتمّ إعلام كلّ الوافدين الجدد به.

ـ كنغ (مخاطباً اكسيبوي):

إذن، اسمع قليلاً يا صاحبي! بين ساعة النهوض وموعد الفطور عشر دقائق. وخلال هذا الوقت ينبغي أن يرتدي الجميع ملابسهم، وإذا أراد أحد أن يغتسل أو أن يبوّل فلا بأس، كلّ واحد منّا له الحقّ أن يفعل، حتّى أنّ في استطاعة واحدنا أن يبدأ بتوضيب سريره كي ينال كلّ دوره فلا نتدافع أو نتزاحم. وكذلك يعمد فوراً إلى فتح الكوى لتهوية ضريط الليل خلال تناولنا للفطور. إنّها العادة هنا. هكذا تسير الأمور، وهكذا سارت دائماً، هذا كلّ شيء حسناً، بعد ذلك، كلّ واحد منّا يحمل قصعته وقبّعته وينتظر النداء، وحين ينبح النداء ينبغي الإسراع والإصطفاف في الخارج، وإذا لم نكن هناك في الثانية، نؤمر بالعودة إلى الداخل في انتظار النداء التالي، فلا مجال لأن يتباطأ أحد ويضيّع الوقت، أن يكون غير جاهز يبحث عن قصعته أو يطفئ عقب سيكارته أو أيّ شيء، والأهم الآخرون الذين سيدفعون الثمن بسببه، هذا واضح، أليس كذلك؟ لا يجوز أن نرد جميعاً إلى الداخل في انتظار النداء التالي لأبله واحد، غير معقول،

وإذا هناك من لا يريد أن يفهم فسرعان ما نتدبّر إفهامه!

ـ السجين الأوّل (مخاطباً كنغ):

كلّنا نفهم ونتصرّف على هذا الأساس.

ـ السجين الثاني (مخاطباً اكسيبوي):

وإذا وجد من أبناء الزانية من يحسب أنّه لن يبالي فلن يفعل سوى مرّة واحدة!

كنغ (مخاطباً اكسيبوي):

إذن بين النهوض والفطور هناك أشياء كثيرة يمكن أن نفعلها. وليس لدينا الوقت للحماقات. وعلى الأخص لا وقت للتدخين. ليس هذا من عاداتنا. بعد الفطور يختلف الأمر. في استطاعة الجميع أن يدخّنوا دون أن يزعجوا أحداً. وهنا، قبل الفطور لا أحد يدخّن، لطالما سارت الأمور في هذه الزنزانة هكذا ولن تتغيّر. في إمكان أي منّا التريّث عشرين دقيقة حتّى ينتهي الفطور، ولا أحد يجد أنّ في الأمر مشكلة. (ومخاطباً السجين الثاني يضيف) ألست محقّاً فيما أقول؟

ـ السجين الثاني (مخاطباً كنغ):

نعم، بالتأكيد.

ـ السجين الأوّل (مخاطباً كنغ):

خاصّة ونحن في هذه اللحظة بالذات نقوم بالتهوية.

ـ كنغ (مخاطباً اكسيبوي):

هذا من ناحية ومن ناحية ثانية هناك أشخاص لا يطيقون ببساطة دخّان السيكارة بعد نهوضهم مباشرة من النوم. لا يحبّونه ويزعجهم ويضرّ برئاتهم. إنّهم لا يتحمّلون وهذا حقّهم. أفهمت؟

ـ اكسيبوي (يلزم الصمت، ولا يفعل سوى أن يهزّ كتفيه حائراً):

ـ السجين الثاني (صارخاً في اكسيبوي):

أسمعت ما قاله لك؟

(يلزم اكسيبوي صمته، ولا يفعل سوى أن يهزّ كتفيه حائراً).

من نراه هنا حاملاً لفافة في خطمه بعد ساعة النهوض مباشرة نجعله يأكل جمرتها!

كنغ (مخاطباً اكسيبوي):

ما يفعلونه في الزنازين لا يعني سواهم. وهنا، بعد النهوض لا أحد يدخّن. ويسري هذا الأمر على الجميع وخاصّة على الوافدين الجدد. هذا، يا صاحبي، ما أردت قوله لك. ولا أتكلّم باسمي وحدي بل باسم الآخرين (ومخاطباً السجين الثاني) أليس بلى.

السجين الثاني: نعم بالتأكيد.

السجين الأوّل (مخاطباً كنغ): كلّنا مجمعون.

كنغ (مخاطباً اكسيبوي):

ـ رآك الجميع تدخّن هذا الصباح وتناقلوا الخبر. وأثار كثيراً من الأحاديث فيما بينهم ولكنّني قلت: لا يزال حديث العهد هنا وغير مدرك وكان أن توقّف الجميع عن الثرثرة. لهذه المرّة لك الغفران وفي المرّة التالية تذكّر جيّداً أنّنا لن نسمح لغرّ أن يبدّل من تقاليدنا.

السجين الأوّل (مخاطباً كنغ): منذ مجيئي إلى هنا لم أر من يجرؤ على التدخين قبل الفطور.

كنغ (مخاطباً اكسيبوي):

ـ حسناً، نغفر لك هفوة اليوم، إنّها المرّة الأخيرة، هل فهمت؟

(يهزّ اكسيبوي كتفيه حائراً).

السجين الثاني (صارخاً في اكسيبوي):

ـ لماذا تحملق بهذه الطريقة، أيّها المخنّث؟ لقد طرح عليك كنغ سؤالاً. (صمت).

كنغ (مخاطباً اكسيبوي):

ـ أرأيت، حتّى الآن استطعنا أن نتغاضى عن القصّة، ومن الآن فصاعداً بتّ على بيّنة الأمر وعليك أن تتدبّر مراعاتك له.

(صمت طويل).

آه للمناسبة، ثمّة أمر آخر، بدءاً بصباح الغد ستوضّب سريرك كما يفعل الجميع. فما دام الآخرون يفعلون ذلك عليك أن تفعل أنت، فنحن لسنا على استعداد هنا لأن نخسر نقطة سلوك كلّ يوم بسبب لواطي غير مبال، فالشلّة كلّها تدفع الثمن، ولن يقبل أحد أن نعاقب بأعمال السخرة لأجل غرّ لا غير لا يجيد ترتيب سريره. وإذا كنت لم تفهم بعد ورأيت سريرك غير مرتّب صباح الغد تقضي السهرة كلها وأنت تتمرّن على اتقانه.

السجين الثاني (مخاطباً اكسيبوي):

ـ ولو اقتضى الأمر أن نقلبه لك عشر مرّات.

كنغ (مخاطباً اكسيبوي):

ـ ينبغي أن يكون غطاء السرير على بعد سنتيمترين اثنين من جهتيّ السرير وثنية الشرشف بعرض قسيمة الحانة. إلخ، سوف يعلّمك الفتيان كيف يكون ذلك.

السجين الأوّل (مخاطباً كنغ):

ـ سأتولّى الأمر بنفسي.

ـ كنغ (مخاطباً اكسيبوي): هل فهمت؟

(صمت).

ـ لقد اعتاد الجميع على هذه الأمور وسوف تعتاد أنت مفهوم؟

السجين الثاني (مخاطباً اكسيبوي):

ـ بحقّ الجحيم هل أنت نائم أيّها المخنّث؟ لقد طرح عليك كنغ سؤالاً؟

السجين الأوّل (مخاطباً كنغ):

ـ قد يصاب بالصمم أحياناً؟

كنغ (مخاطباً اكسيبوي):

ـ هل نظّفت المغسلة هذا الصباح؟

(صمت).

ـ هذا الأسبوع أنت المكلّف بالتنظيفات، يجب أن تقوم بكلّ هذه الأمور! وإذا كنت تحسب أنّه يكفي أن تمرر المكنسة في الأرجاء وينتهي الأمر فأنت مخطئ. يجب أن تمرر الممسحة تحت الأسرّة. وخاصّة عند الزوايا لصق الحائط ـ فالحرّاس يدقّقون بواسطة المصباح الكهربائيّ ـ وكذلك عليك أن تمسح الغبار أينما كان وتنظّف المغسلة وتنشّفها وتلمّعها والمراحيض. اليوم كانت المراحيض عائمة ولحسن حظّك لا أحد من الحرّاس أتى ليدقّق وإلاّ لغرقت في الخراء. وهذا المساء سأتولّى الإشراف بنفسي قبل جولة التفتيش. نحن هنا ثلّة واحدة، كلّنا متساوون ولا استثناء لأحد. وخاصّة لا استثناء لغرّ مثلك يحجل بسيكارته المشعلة أمام الباب!

السجين الثاني (صارخاً في اكسيبوي):

ـ حرّك قفاك، أيّها المخنّث، حين يخاطبك كنغ.

(يظلّ اكسيبوي جالساً على سريره ويواصل ابتسامه حائراً، يهمّ السجين الثاني بالارتماء على اكسيبوي وكنغ يمنعه).

كنغ (مخاطباً السجين الثاني):

ـ تريّث.

(مخاطباً اكسيبوي):

ـ قل، يا صغيري، إذا كنت تحسب أنّك منذ يومك الأوّل هنا ستفعل ما يحلو لك أو تلعب دور الملك فأنت تأكيداً وضعت في الزنزانة غير المناسبة! إذن فكّر جيداً، فلا بدّ فهمت جيّداً أنّك لن تستطيع مواجهتنا!

(صمت).

السجين الأوّل (مخاطباً كنغ):

ـ ألا تظنّ أنّه بالغ في التباهي حتّى الآن.

كنغ (مخاطباً اكسيبوي):

ـ وغادر هذا السرير؛ هيّا!

(صمت، اكسيبوي لا يتحرّك).

السجين الثاني (صارخاً في اكسيبوي):

ـ أسمعت؟

(صمت، اكسيبوي لا يتحرّك).

كنغ (مخاطباً اكسيبوي):

ـ اسمع يا صغيري لا أحبّ أن أبدو كالغبيّ! ولا تظنّ أنّك بهذه الطريقة سوف تنال منّي.

السجين الأوّل (مخاطباً اكسيبوي):

ـ إنزل حالاً واعتذر من كنغ.

(صمت، اكسيبوي لا يتحرّك، يكتفي بالابتسام حائراً).

السجين الثاني (صارخاً في اكسيبوي):

ـ يا لك من بالوع خراء!

(يهرع السجين الثاني نحو الأسرّة ويشدّ اكسيبوي من ساقه، يقع اكسيبوي أرضاً، فيضربه السجين الثاني ثمّ يعود ليقف قرب كنغ. ينهض اكسيبوي ببطء وينظر إلى الآخرين بسحنة من لا يفهم شيئاً، صمت طويل).

السجين الثالث (بصوت منخفض):

ـ يا فتيان!

(صمت، والجميع يحدّقون في اكسيبوي).

كنغ (مخاطباً السجين الثالث دون أن يلتفت إليه).

ـ ما الأمر؟

(صمت، الجميع يحدّقون في اكسيبوي).

السجين الثاني (بصوت منخفض):

ـ في الحقيقة، إنّه هنغاري أو شيء من هذا القبيل!

(يوجّه الجميع نظرات متسائلة نحو كنغ!

صمت يشوبه التوتّر).

كنغ (بعد برهة وبصوت منخفض):

ـ وماذا يعني؟ إنّها غلطته.

(يتقدم كنغ متوعّداً في اتجاه اكسيبوي، يتبعه السجناء الأوّل والثاني والثالث ببطء ويحيطون باكسيبوي، وهم يقتربون منه أكثر فأكثر. يسدل الستار).

سلافومير مْرُوْجِك

XI

سلافومير مْرُوْجِك (مواليد بولندا عام 1930) مسرحي ورسّام وكاتب قصّة. هجر موطنه في مطلع الستينات وعاش متنقّلاً بين ايطاليا وفرنسا والمكسيك حيث يقيم اليوم. له عدد من المسرحيات التي عرضت في مسارح باريسيّة منذ الستينات: «تانغو: أو حدبة الأحدب» و«الشجرة» وغيرها.

وقد صدرت الترجمة الفرنسية لمجموعته القصصية: «الحياة صعبة» عن دار نشر ألبان ميشال في كانون الثاني 1992. اخترنا منها قصّة: «ثورة» التي تكشف جوانب عميقة من حسّه الحاد بالعبث واللاجدوى.

ثورة

سلاڤومير مروجك

في غرفتي كان السرير قد وُضعَ هنا والخزانة هناك وبينهما الطاولة.

إلى أن مللتُ المنظر ذات يوم. فنقلتُ السرير من مكانه ووضعته هناك، ونقلتُ الخزانة إلى هنا.

ولبعض الوقت سَرَت في كياني رعشة التجديد المُنعشة. ولكنْ في غضونِ بضعة أيّام عاودني الضجر.

واستنتجتُ أنّ مصدر سأمي هو الطاولة، أو الأحرى موقعها الوسطي الثابت.

فنقلتُ الطاولة إلى هناك وقرّبتُ السرير إلى وسط الغرفة. وبدا الترتيبُ الجديد غير تقليدي.

مَنحتني لمسة التجديد هذه بعض الحيوية والانتعاش وأذعنتُ، ما بَقيتُ، لبعضِ الإرباك الذي سبّبته. فالحقيقة أنني أصبحتُ عاجزاً عن النوم مولياً وجهي شطرَ الحائط وهو الوضعُ الذي اعتدته في نومي.

. إلاّ أنّ لمسة التجديد لم تبقَ جديدة في غضونِ أيّام، بل أصبحت مصدر ضيق وازعاج. وعندئذٍ نقلتُ السرير إلى هذه الناحية ووضعتُ الخزانة في الوسط.

وهكذا بدا التغيير، هذه المرّة، جذريّاً. فالحقيقة أنّ وضع الخزانة في وسط الغرفة يفوقُ أيّ نزعة غير تقليديّة. إنّه عملٌ طليعي.

ومع ذلك، في غضونِ أيّام... آه، تبّاً لهذه العبارة اللعينة!... باختصار، حتّى الخزانة في وسط الغرفة راحت تفقد عنصرَ الجدّة غير المألوفة.

وكان عليَّ أن أُحدثَ قطيعة جذريّة، أن أتخذ قراراً أساسيّاً. فإذا كان يستحيل التجديد داخل الإطار الموصوف أعلاه، فينبغي إذاً الخروج نهائيّاً منه وعليه. إذ بدا أنّ كلّ تغيير يخرج عن المألوفِ لا يكفي وحده، وأنّ الطليعيّة لم تؤدّ إلى أيّ تحسُّنٍ ملموس. فأصبح الموقف الثوري ضروريّاً.

عقدتُ العزم على النوم في الخزانة. ويعلم كلّ الذين حاولوا النومَ واقفين داخل الخزانة أنّ مثل هذا الموقف غير المريح سيؤدّي حتماً إلى الأرق، فضلاً عن الارهاق الذي يستبدّ بالساقين وأوجاع العمود الفقري.

بلى، كان ذلك هو القرار المناسب. وأخيراً، النجاح، النصر التامّ. ذلك أنّ التجربة لم تعترضها هذه المرّة عبارة «في غضون أيّام». فبعد وقتٍ طويل من مزاولةِ هذه التجربة كنتُ لا أستطيع القول إنني لم أعتد التغيير وحسب، أيّ أنّ التغيير ظلَّ على حالهِ تغييراً، بل وأحسَستُ بوطأته في تزايدٍ مستمرّ؛ إذ كانت الأوجاع تتعاظمُ وتشتدّ مع مرور الوقت.

وبدا أنّ الأمور تسير من حسنٍ إلى أحسن، لولا أنّ قوّة احتمالي البدنيّة كانت محدودة جدّاً. وذات ليلة لم أقوَ على الاحتمال. فغادرت الخزانة واستلقيت فوق السرير.

وغفوتُ طيلة ثلاثة نهارات وثلاث ليالي. وعندما استيقظت أزحتُ الخزانة ووضعتها بمحاذاة الحائط، ونقلتُ الطاولة إلى وسط الغرفة، لأنّ وضع الخزانة في الوسط كان يُربك حركتي.

والآن تجد السريرَ هنا، حيث كان مِن قبل، والخزانة هناك وبينهما الطاولة. وعندما يستبدّ بي الضجر أذكرُ الحقبة التي كنتُ فيها ثوريّاً.

ليوناردو شاشا

XII

ولد ليوناردو شاشا عام 1931 في صقلية، حيث أمضى معظم حياته. بعد أن كتب عدداً من القصص القصيرة، ابتكر شاشا نوعاً أدبياً جديداً، إنها الحكاية البوليسية؛ عبارة عن نص سردي لاذع بنقديته تحت غطاء حبكة بوليسيّة، وفي معظم ما كتبه شاشا كان المغزى السياسي الذي قد يستخلص من «حكاياته»، موجها ضد «المافيا».

له «مجلس مصر»، «السباق»، «تودومودو»، «الطعنة».. وتوفي عام 1989.

«حكاية بسيطة»، رواية قصيرة جداً، هي آخر ما كتبه شاشا، صدرت في طبعتها الايطالية إثر وفاته، ونقلت إلى الفرنسيّة عام 1991 عن دار نشر «فايار».

حكاية بسيطة

ليوناردو شاشا

مرة أخرى، أريد أن أسبر بدقة كل الامكانات التي
ربما لا تزال وسع العدالة.

[فردريك دورنمات، عدالة]

لقد تلقى الاتصال الهاتفي عند الساعة التاسعة والدقيقة السابعة والثلاثين، مساء 18 آذار وهو مساء يوم سبت وعشيّة العيد اللاهب الصاخب الذي كانت المدينة تكرّس الاحتفال به للقديس يوسف النجّار. ولهذا القديس النجّار بالذات، كانت تُبذَل محارق الاثاث العتيق التي تُضرَم، في تلك الليلة، في أرجاء الأحياء الشعبية مثابة وعدٍ يُقطع للنجّارين الذين ما فتئوا يزاولون مهنتهم، وباتوا قلّة قليلة بأية حال، بعملٍ مقبلٍ لا محالة. وكانت المكاتب شبه مقفرة، كما تكون في العادة، أو ربما أكثر مما هي عادة في مثل تلك الساعة: لكنّها مضاءة، خصوصاً تلك الاضاءة الغسقيّة الخافتة التي تنبعثُ من مكاتب مفرزة الشرطة تطبيقاً للتعليمات المتشدّدة لكي يشعر المواطنون أن ثمّة في تلك المكاتب مَن لا تغمض عينه الساهرة على أمنهم.

دوّن عامل المقسّم توقيت المخابرة واسم الشخص الذي أجراها: جورجيو روتشيلاّ. وكانت نبرته لبقة، هادئة ومقنعة. «شأن المجانين جميعاً» قال عامل المقسّم في سرّه. فقد كان السيد روتشيلاّ

المذكور، يودّ التحدث إلى رئيس الشرطة: الأمر الذي يُعَدّ جنوناً مطبقاً، خصوصاً في مثل تلك الساعة وفي مثل تلك الليلة بالذات.

حاول عامل المقسّم أن يحافظ على هدوء نبرته إلاّ أنه لم يُفلح إلاّ بتقليد نبرته العادية بصورة كاريكاتورية تفضحها تلك العبارة الساخرة التي أجاب بها: «آسف. ولكن الرئيس في الميادين» وهو التعبير الذي يتردّد عادة في تلك المكاتب كذريعة لتغيّب الرئيس المتكرّر. وأردف قائلاً: «سأصلك بمكتب المفوّض» مُبيّناً نيّته الخبيثة في احْرَاج المفوّض الذي لا بدّ أن يكون على وشك المغادرة في تلك اللحظة.

وبالفعل كان المفوّض يهمّ بارتداء معطفه فبادر العريف الذي يشكل مكتبه زاوية حادّة مع مكتب المفوّض إلى رفع سماعة الهاتف. أصغى وأخذ قلما وقصاصة ورق. وبينما كان منهمكاً بتدوين ما يسمعه كان يجيب بنعم؛ بلى سيذهب في أقرب وقت ولكن ما أن يُتاح له ذلك، مشيراً، دون أن يُفصح تماماً، إلى احتمال أن لا يُرتجى قدومه بالسرعة المرجوة.

«من هذا؟ سأل المفوّض.

ـ رجلٌ، قال العريف، يريد أن يطلعنا، في أسرع وقت، على شيء ما عثر عليه في منزله.

ـ جثة؟ قال المفوّض مازحاً.

ـ لا، لقد أوضح أنه شيء.

ـ شيء... وما اسم هذا الرجل؟».

تناول العريف قصاصة الورق التي دوّن عليها الاسم والعنوان، وقرأ بصوت عال: «جورجيو روتشيلاّ، في كَفرِ كوتونيو، بعد

التقاطع في اتجاه مونتيريسّو، المفترق الأيمن، أربعة كيلومترات. على بُعد خمسة عشر كيلومتراً من هنا».

عاد المفوّض أدراجه من ناحية الباب واقترب من مكتب العريف، أخذ منه قصاصة الورق وقرأ كأنه يريد أن يجد فيها شيئاً ما لم يلحظه كلام العريف. فقال:

«هذا مستحيل.

ـ ماذا؟ سأل العريف.

ـ روتشيلاّ هذا، قال المفوّض، يعمل في السلك الديبلوماسي قنصلاً أو سفيراً، ولا أعرف في أي بلد بالضبط. ومنذ سنوات طويلة لم يأت إلى هنا، منزله في المدينة مقفل، ومنزله الريفي مهجور وشبه خرِب في كَفر كوتونيو بالتحديد... إنه المنزل الذي يُرى من الطريق: في أعلى الكفر وكأنه حصن صغير...

ـ إنها مزرعة قديمة، قال العريف، لقد مررت من هناك مراراً.

ـ داخل السور الذي يجعل المكان أشبه بمزرعة، هناك فيللا صغيرة جميلة جداً. أو، في الأقل، كانت هناك... لقد كانت عائلة كبيرة، عائلة روتشيلاّ، ولم يبق منها اليوم إلاّ هذا القنصل أو السفير، لا أدري... حتى أنني لم أكن أحسب أنه لا يزال على قيد الحياة، فقد توالى عن الأنظار منذ زمن بعيد.

ـ إذا شئت، قال العريف، بإمكاني أن أذهب للتحقق من الأمر.

ـ لا، أنا واثق من أنها مجرد دعابة... بإمكانك أن تذهب غداً، إن دعت الحاجة أو كانت لديك الرغبة والوقت، لالقاء نظرة... أما من جهتي أنا، فمهما حدث لا تحاول أن تتصل بي: إني ذاهب للاحتفال بعيد القديس يوسف عند أحد أصدقائي، في الأرياف».

* * *

في اليوم التالي، وصل العريف، في سيارة دورية إلى كفر كوتونيو: وكانوا، العريف والشرطيان المرافقان، يتوقعون أن يكون الأمر مجرّد تفقد روتيني: فاستناداً إلى ما قاله المفوض، كانوا على ثقة تامة من أن المنزل مهجور وان مخابرة البارحة لم تكن أكثر من دعابة.

جدول ماء يلتف عند سفح الجبل أصبح قناة جافة مفروشة بالحصى، حصى أبيض كلسي كأنه بقايا عظام: إلا أن التلة، التي تعلوها المزرعة الخربة المهجورة، مكسوة بخضرة متألقة. وكان في نية الرجال الثلاثة، أن ينصرفوا بعد تدوين وقائع المعاينة، إلى جمع أغمار من الهليون والهندباء البرية. ذلك أنهم من خَيرة من استطاع التعرف إلى الخضار البرية الصالحة للأكل، بسببِ من أصولهم الريفية الواضحة.

اجتاز الرجال الثلاثة مدخل السور الذي لم يكن، خلافاً لناظره من بعيد، مجرد حيطان عالية. انه مجموعة من المخازن موصدة أبوابها باقفال عادية، تحوط الفيللا الصغيرة التي تبدو جميلة بالفعل على الرغم من بعض مظاهر الاهمال والتداعي. كل النوافذ كانت مغلقة باستثناء واحدة يمكن للمرء أن يرى الداخل عبر درفها الزجاجية. ولكن ضوء ذلك النهار الساطع من أيام مطلع آذار، لم يتح لهم في البداية إلا رؤية مشوّشة للداخل. ثم شيئاً فشيئاً راحوا يميزون الأشياء. وحين استعانوا بأيديهم لحجب ضوء الخارج عن أعينهم وتمكنوا من تفحص الداخل بدقة، بدا لهم، جميعاً، أنهم يرون رجلاً من الخلف، ظهره في اتجاه النافذة، جالساً على طاولة المكتب وقد تهالك فوقه ممدود الذراعين مطرق الرأس. يتخذ العريف القرار بتحطيم زجاج النافذة وفتحها بغية الدخول إلى

الحجرة؛ فقد يكون الرجل قد أصيب بطارئ صحي، وقد يكون في حاجة إلى الاسعاف. ولكن الرجل كان ميتاً، لم يصب بإغماء مفاجئ أو بنوبة قلبية: فعلى وجهه المستند جانبياً إلى الطاولة، وفي موضع وسط بين الفك والصدغ ثمة جلطة من دم متخثر أسود.

فصرخ العريف مخاطباً الشرطيين اللذين قفزا عبر النافذة، هما أيضاً، ودخلا: «لا تلمسا شيئاً»؛ ولكي لا يمسّ الهاتف الموضوع على طاولة المكتب، أمر أحد الشرطيين بالعودة فوراً إلى المخفر لتقديم تقرير واحضار طبيب للمعاينة، ومصوّر، بالاضافة إلى أولئك الثلاثة الذين يعتبرون في المخفر خبراء الأدلة الجنائية، والذين يعتبرهم العريف لا خبراء ولا من يحزنون لأنه حتى اليوم لم تؤدِّ خبراتهم إلى الاسهام في حل أي قضية، بل ربما أدّت أحياناً إلى المزيد من اللَّبْس والبلبلة.

بعد أن أصدر أوامره، وكرر تحذيره للشرطي الآخر من أن يمس أي شيء، راح العريف يعاين المكان ويدون ملاحظاته لانجاز التقرير الذي ينبغي أن يتقدم به لاحقاً: وهي المهمة الشاقة، لأن أعوام الدراسة وقراءاته القليلة لم تكن كافية لأن تجعله على وئام مع اللغة الايطالية. إلا أن المستغرب في الأمر، أن احساسه العميق بالواجب الذي يملي عليه أن يَصِف، كتابةً، ما يشاهده، وانهماكه الفعلي، لا بل انهماكه القلق، كانا يضفيان على يقظة ذهنه حس الانتقاء والاختيار، الأمر الذي يجعل عملية الكتابة لديه دقيقة ومفيدة. وربما كان هذا ما يمتاز به كتاب الجنوب الايطالي، خصوصاً كتّاب صقلية، عن غيرهم: على الرغم من الدراسة الثانوية والجامعية، وعلى الرغم من كافة القرارات.

كان الانطباع الأولي والبديهي أن الرجل انتحر. كان المسدس

ملقى على الأرض، إلى يمين الكرسي الذي يجلس عليه: انه سلاح قديم يعود إلى أيام حرب 14 ـ 18، ألماني الصنع، كتلك الأسلحة الخفيفة التي حملها معهم المحاربون القدامى كتذكارات من أيام الحرب. إلا أن تفصيلاً ما، جعل العريف يستبعد على الفور احتمال الانتحار: فقد لاحظ أن يد القتيل اليمنى، التي يفترض أنها كانت تمسك بالمسدس الذي سقط في ما بعد أرضاً، لم تكن متدلية بل ممدودة على الطاولة وممسكة بقصاصة ورقة كتب عليها: «لقد وجدت.». وبدت هذه النقطة بعد كلمة «وجدت»، بمثابة التماعة أيقظت نباهة العريف وعرضت أمام بصيرته، خاطفاً سريعاً، مشهد جريمة خلف المشهد المفبرك، دونما اتقان، لانتحار مفترض. لقد شرع الرجل بتدوين عبارة «لقد وجدت.»، كما قال، في اتصاله الهاتفي، أنه وجد شيئاً لم يتوقع أن يجده: وكان يهم بذكر ما وجده كتابة، ظناً منه أن الشرطة لن تصل في الوقت المناسب، الأمر الذي جعله، في عزلة هذا المكان وسكونه، يشعر بالخوف، ولكنه سمع قرعاً على الباب. «انها الشرطة»، قال في سره. ولكن، للأسف، كان القاتل. ربما انتحل صفة شرطي فأدخله الرجل وعاد ليجلس مكانه، على الكرسي خلف طاولة المكتب، وشرع يخبره عما وجده. ربما كان المسدس موضوعاً على الطاولة، فلا بد أن خوفه قد دفعه إلى نبش هذا السلاح القديم من المكان الذي وضعه فيه منذ زمن (إذ لا يعتقد العريف أن القتلة يحملون مثل هذا الطراز القديم من السلاح). وعندما رأى القاتل المسدس على الطاولة، ربما راح يسأل الرجل بشأنه، وربما أمسكه بيده محاولاً التثبت من خصائصه، ثم فجأة، صوّب السلاح الى رأس الرجل وأطلق النار. ثم عمد إلى فعلته العبقرية: أن يضع نقطة بعد عبارة «لقد وجدت.»: «لقد وجدت أن الحياة لا تستحق أن تعاش»، «لقد وجدتُ الحقيقة

الوحيدة والنهائية»، «لقد وجدت»، «لقد وجدت»: كل شيء، ولا شيء. مثل هذا المنطق ليس متماسكاً. ولكن، من وجهة نظر القاتل لم تكن اضافة النقطة مجرد غلطة. فإذا ما أخذت بعين الاعتبار فرضية الانتحار، وهي الفرضية التي تتبادر إلى الذهن فوراً(ومثالنا على ذلك ما تبادر الى ذهن العريف)، فلا بد أن تُستنتج من هذه النقطة جملة من المعاني الوجودية والفلسفية، خصوصاً أن شخصية الضحية تسمح بمثل هذا التداعي الفكري. على الطاولة أيضاً، كانت هناك حافظة مفاتيح، ومحبرة قديمة من القصدير، وصورة، تعود إلى أكثر من خمسين عاماً، لمجموعة من الناس في الحديقة، مبتهجين: ربما التقطت الصورة في الخارج عندما كان المنزل لا يزال محاطاً بالأشجار المظللة، هناك حيث لم يبق اليوم سوى الحجارة والنباتات الشوكية.

بالقرب من قصاصة الورق التي دوّن عليها: «لقد وجدت»، هناك قلم حبر سائل أعيد غطاؤه باحكام: انه حقاً، تصرف مترف من قبل القاتل (فالعريف يزداد اقتناعاً بأن في الأمر جريمة) والقصد منه الايحاء بأن الرجل عندما أضاف النقطة الى عبارته، إنما وضع النقطة النهائية لحياته.

كانت جدران الحجرة الأربعة مغطاة برفوفٍ خشبيّة خالية من الكتب، والمجلدات الوحيدة المتبقية فوقها هي اعداد، مجلّدة في مجموعات سنوية، من مجلّة قانونية، وبعض المؤلفات الزراعية، وبضع نشرات تحمل العنوان: «الطبيعة والفن». وكان هناك أيضاً بضعة مجلّدات قديمة جداً وضعت فوق بعضها البعض، وقرأ العريف على غلاف أحدها كلمة «Calepinus». . والحال، أن العريف لطالما حسب أن المفكرة عبارة عن دفتر صغير يحمله المرء

في جيبه، أو عبارة عن مذكرة جيب أو كرّاسة مواعيد صغيرة: وبدا له مُستغرباً أن يكون مصدر هذا الاسم الذي يُطلق على كتيبات صغيرة، هو هذه المجلّدات الضخمة التي يزن واحدها أكثر من عشرة كيلو غرامات. وقد دفعه حرصه على عدم ترك أي بصمات خاصة به (وهو الأمر الذي لا يؤمن به كثيراً) إلى مقاومة فضوله الذي كان يوسوس له بفتح أحد هذه المجلدات. كما دفعه هذا الحرص إيّاه على التجوال، متبوعاً بالشرطي المرافق، في أرجاء المنزل دون أن يمسّ الأثاث أو مقابض الأبواب، الأمر الذي اضطرّه إلى تفقد الحجرات التي كانت أبوابها مفتوحة فقط.

كان البيت أوسع بكثير مما يبدو لناظره من الخارج. فهو مؤلف من صالة كبيرة للطعام وضعت فيها طاولة من خشب السنديان، وأربع طبقيّات من الخشب ذاته تحتوي على الأطباق وأواني الحساء والكؤوس والأكواب؛ ولكنها تحتوي أيضاً على لُعَبٍ قديمة وأوراق وبياضاتٍ مختلفة. وإلى الصالة هناك حجرات للنوم، اثنتان منها مجهزتان بأسرّةٍ كدّست فوقها المراتب والوسائد، وواحدة بسرير واحد بدا واضحاً أن أحداً ما قد نام عليه الليلة المنصرمة. ثلاث حجرات للنوم إذاً. وربما كانت هناك حجرات أكثر خلف الأبواب التي حرص العريف على عدم فتحها. بدا المنزل مُهمَلاً منذ بعض الوقت وافرغ من أثاثه أو معظمه، ومن الكتب واللوحات وأواني البورسلين (إذ يستطيع المرء أن يرى بوضوح اثر الأشياء التي ما عادت هنا)، إلاّ أنه، على الرغم من ذلك، لا يوحي بأنه مهجور. فأعقاب السجائر تملأ المنافض، وبقايا من نبيذ ماصلٍ في الكؤوس ـ عددها خمس كؤوس ـ التي أعيدت إلى المطبخ بقصد غسلها بالتأكيد. أما المطبخ ففسيح الأرجاء وفيه مواقد خشب وفرن وكُسِيَت جدرانه بسيراميك ڤالنس؛ وأطباق وطناجر نُحاسٍ علّقت

على مواضع من الحيطان وتضفي بلمعانها ألقاً على الانارة الكابية للمكان وان كان معدنها قد بدأ يستحيل إلى الأخضر العَفِن. من المطبخ ثمة باب يفضي إلى سلّم صاعد، ضيّق ومُعتم، وليس بالامكان التثبُّت من المكان الذي يفضي إليه.

حاول العريف أن يجد مفتاحاً كهربائياً لمصباح ينير هذا السلّم. ولما لم يعثر إلاّ على مفتاح وحيد لاضاءة المصابيح المتدليّة فوق الفرن، تلمس طريقه صاعداً السلّم. ولكنه قبل أن يجاوز الدرجة الخامسة أو السادسة راح يستعين بضوء أعواد الثقاب متابعاً تسلّقه بتوجس ظاهر. والحق أنه أشعل عدداً لا يحصى من أعواد الثقاب قبل أن يصل إلى أعلى السلّم الذي اتضح أنه يفضي إلى سقيفة، هي عبارة عن غرفة وطيئة السقف بحيث لا يستطيع رجل معتدل الطول أن يقف فيها دون أن يلامس رأسه السقف، إلا أنها فسيحة الأرجاء وباتساع صالة الطعام تقريباً. كانت السقيفة تتراكم في أرجائها الأرائك والكنبات والكراسي المخلّعة، والصناديق والأطر الخشبية التي نزعت صورها وكافة أنواع الشراشف المطرّزة المكسوة بالغبار. وكيفما نظرت تطالعك التماثيل النصفية لعدد من القديسين؛ دزينة منها، ربما، مُذهبة، ومن بينها تمثال يفوقها حجماً، جذعه من الفضّة ودثار أسود ووجه مُسنّ تكسوه التجاعيد. كانت التماثيل النصفية المذهبة ذات منصّات باروكية حُفِر على كل منها اسم القديس الذي تحمل تمثاله. أما التمثال الآخر، أكبرها حجماً وأكثرها قتامة، فلم يكن للعريف ما يكفي من الخبرة والدراية في موضوع القديسين ليتعرف فيه إلى وجه القديس إينياس.

أشعل العريف آخر عود ثقاب في جعبته وهبط السلّم على عجل. «انها مجرد سقيفة مكتظة بالقديسين» قال مخاطباً الشرطي الذي كان

ينتظره أسفل الدرج. وكان يشعر بأن الغبار وأعشاش العنكبوت والعفونة التي تجمعت هناك قد حَلَّت عليه جميعها. فهرع إلى النافذة ليغادر المنزل مُتلهفاً لضوء تلك الصبيحة الباردة، والشمس، والعشب الذي يتقطر منه الندى.

ثم راح يقوم بجولة حول المنزل، يتبعه الشرطي كظله. وبين أكوام النبات الشوكي والحجارة الضخمة التي تملأ الانحاء تنبّه العريف إلى فسحة خالية لا بدّ أنها استخدمت لركن السيارات وربما الشاحنات. «لقد كان السير مزدحماً هنا» قال العريف. ثم أشار الى الاقفال وقال مخاطباً: «ما رأيك بهذه الأقفال؟» تلك التي أوصدت بها أبواب المخازن أو الاصطبلات التي تحيط بالمنزل كحصن على طريقة الوسترن الأميركي.

«انها اقفال جديدة، قال الشرطي.

ـ أحسنت» قال العريف.

بعد أقلّ من ساعتين حَضَر إلى موقع الحادثة كل الذين ينبغي أن يحضروا: رئيس الشرطة والمدعي العام والطبيب الشرعي والمصور وصحافي من بين المحظيين لدى رئيس الشرطة، بالاضافة إلى ثلّة من رجال الشرطة، ومن بينهم، سَدَنة المشرحة، أي رجال الأدلّة الجنائية. ست أو سبع سيارات، ظلّت، حتى بعد وصولها، على هديرها وصخبها وصفاراتها، كأنها لم تنتبه، بعد أن عبرت شوارع المدينة مستثيرة فضول الأهلين وكذلك الأمر ـ وهو ما كان رئيس الشرطة يودّ أن يحدث متأخراً ـ فضول رجال الدرك. ولهذا السبب حَضَر عقيد مفرزة الدرك بعد نصف ساعة من التأخير، مُكفهر الوجه، غاضباً وعلى أهبّة الاستعداد للمشاحنة، بكل الاحترام المتوجب، مع رئيس الشرطة؛ وبالطبع كانت الأبواب قد فتحت

جـميعها بوساطة المفاتيح التي عثر عليها فوق طاولة المكتب، وبعد أن شرع رجال الأدلة برفع البصمات، هنا وهناك، دونما كبير تمييز أو مبالاة، وبعد أن التقطت صور القتيل من كل المواضع والجهات. قال العقيد الدركي محاولاً تمالك غضبه: «كان الأحرى بكم أن تبلغونا»، «أرجو المعذرة قال رئيس الشرطة، ولكن الأمور جرت بسرعة مذهلة وتمّ كل شيء في غضون دقائق». «حسناً حسناً» قال العقيد باستهزاء.

رفع المسدس عن الأرض بوساطة قلم ادخل عبر واقية الزناد، ووضع بأناة فوق فوطة سوداء ولُفّ بها بعناية. «البصمات، حالاً»، قال الرئيس. لقد رفعت بصمات القتيل. «لا جدوى من ذلك، قال متمتماً، ولكن الشغل شغل».

ـ ولماذا تقول لا جدوى من ذلك؟ قال العقيد.

ـ انها حادثة انتحار، قال الرئيس متجهماً، وكأنه بذلك يدفع عقيد الدرك الى تبني وجهة نظر أخرى.

ـ سيدي الرئيس... قال العريف مقاطعاً.

ـ كل ما تودّ قوله دوّنه في تقريرك الذي سترفعه في ما بعد... وفي الانتظار...»: ولكنه ما كان ليدري ماذا يمكن أن يُقال أو يُفعل في الانتظار، سوى ترداد قوله: «انه انتحار؛ واضح تماماً انها قضية انتحار».

ولكن العريف حاول مرة أخرى: «سيدي الرئيس...». كان يريد أن يخبره عن الاتصال الهاتفي الذي تلقاه ليلة أمس، وعن النقطة التي وضعت بعد عبارة «لقد وجدت». إلاّ أن الرئيس قاطعه بحزم: «نريد التقرير»، مشيراً إلى المدعي العام وإلى نفسه المقصودين بالنحن، ونظر إلى ساعته، «بعد ظهر هذا اليوم».

ومخاطباً المدعي العام وعقيد الدرك، أردف قائلاً: «انها قضية بسيطة جداً، ويجد أن لا يعمل أحد على تضخيمها، ويجب أن تطوى صفحتها بسرعة. . . هيا اذهب واكتب تقريرك على الفور».

بناء عليه، رأى العقيد، تلقائياً، ان القضية، على الضدّ من ذلك، معقدة جداً، وانها، بأية حال، ليست من نوع القضايا التي يمكن أن تُطوى صفحتها بسرعة. وبذلك نشأ، مسبقاً، وايّا كان المعني بالأمر، خلاف حاسم بين وجهتي نظر المؤسستين: سلاح الدرك، وسلك رجال الشرطة. فثمة خلاف دهريّ وتاريخي يُباعد بينهما: وكل مَن يرميه سوء الطالع على شفار الخلاف بينهما تذيقه التجربة مُرّ الأمرّين.

أجاب العريف: «حالاً يا سيدي»، وهمّ بمغادرة المكان مستقلاً سيارة الدورية التي اقلته إلى مكان الحادث بعد أن أعادها الشرطي الذي تولى الإخطار بالحادثة. إلاّ أنه نظراً لما أقدم عليه الرئيس من ازدراء به، وبما أنه يكاد لا يمتلك الحدّ الأدنى مما يُسمى عادةً روحية التآزر في السلك، أي اعتبار السلك هو الجسم الأكبر الذي يجمع الفرديات الأنانية، والنظر إليه على أنه جسم متكامل لا يخطئ، وانه، حتى حين يخطئ ينبغي القول انه صواب الصواب ولو في الخطأ، لهذا كله خطرت للعريف فكرة ساخرة.

في السيارة التي أقلّت عقيد الدرك، كان السائق، وهو برتبة عريف أيضاً، لا يزال جالساً وراء المقود. فجلس صاحبنا عريف الشرطة الى جانبه، لأنهما كانا على صلة جيدة وان كانت هذه الصلة لا ترقى الى حميمية صداقة فعلية. وراح يروي له كل التفاصيل التي يعرفها عن الحادثة والشكوك التي تراوده بهذا الشأن. كما أشار عليه بالانتباه الى الاقفال الجديدة على أبواب المخازن؛ وبعد ذلك، عاد

الى مكتبه كمن تخفّف من كدر غيظ ألمّ به واستغرقته كتابة التقرير اكثر من ساعتين، علماً بأن ما دوّنه فيه لم تستغرقه روايته، نمّاً، على مسامع زميله أكثر من خمس دقائق.

وهكذا علم العقيد، في طريق عودته إلى المدينة، ممّا رواه له سائقه ما يكفي لأن يجعل القضية أكثر تعقيداً ممّا يودّ رئيس الشرطة ويتمنى.

مع أن ذاك اليوم يُصادف يوم أحد وعيد القديس يوسف، لم تتوقف التقارير العدلية وبعض معطيات قيد المساحة، وكذلك المعلومات الحميمة، عن التدفّق الى مركز الشرطة والى قيادة الدرك. وكانت تلك التقارير والمعلومات متشابهة أو تكاد تكون متشابهة إلا في ما ندر: لأن مصادرها واحدة ونعني بذلك المرشدين الذين يعملون لحساب الجهتين: ولو أن هؤلاء عملوا على التنسيق في ما بينهم لكانوا وفّروا على احدى الجهتين كل هذا الجهد وكل هذا الوقت المهدور عبثاً والذي كان يمكن أن يُستخدم في مهمات أكثر منفعة. ولكن استطرادنا هذا أشبه بالحلم حين يرغب المرء في حدوث أمر مستحيل على غرار حسن الجوار والتعاون بين بنّاء وزارع متفجرات. (وواضح جداً أن المثلين المذكورين لا ينطبقان على أي من الجهتين).

هوية الضحية: جيورجيو روتشيلاّ دي مونتيروسو، المولود، بالفعل، في مونتيروسو في 14 كانون عام 1923، ديبلوماسي متقاعد. لقد عمل قنصلاً لايطاليا في عدد من المدن الأوروبية، وكان آخرها مدينة ادنبرغ حيث انفصل عن زوجته وعاش مع ابنه البالغ من العمر عشرين عاماً. ولم يعد الى ايطاليا، بعد نحو خمسة عشر عاماً، الا ليلقى حتفه فيها بصورة مأسوية في 18 آذار 1989.

وكان المذكور آخر أفراد عائلته التي ورث عنها، من دون أن يُعنى بها فعلاً، بقايا ميراث كبير ومتنوّع: منزل شبه متداع في المدينة، وهذه الڤيلا المحاطة بمساحة متواضعة من الأراضي. وكان الرجل قد وصل إلى المدينة في ذلك اليوم بالذات، يوم 18 آذار؛ تناول طعام الغداء في مطعم «الشمعات الثلاث» وكانت وجبته مؤلفة.من طبق من المعجنات بالحبّار وطبق آخر من سلطة الأخطبوط. بعد ذلك استدعى سيارة أجرة لتقلّه إلى الڤيلا. واستبقى السائق بعد وصوله لبعض الوقت للتثبت من أن المفاتيح ما زالت صالحة لفتح الأبواب، كما قال، ثم أطلق سبيله بعد أن طلب إليه أن يعود لاصطحابه في اليوم التالي عند الحادية عشرة. «اني أعاني من الأرق المزمن، قال مبرراً، لذلك سأعمل طوال الليل». ولكن سائق سيارة الأجرة لم يصعد إلى الڤيلا في اليوم التالي عند الحادية عشرة لأنه رأى رجال الشرطة والدرك منتشرين في أرجاء المكان. فربما قال في سرّه أن هذا الرجل لا بدّ أن يكون خطيراً وتبحث عنه الشرطة. فما الداعي إلى التورّط بمتاعب لا تُحمد عقباها؟

كان رئيس الشرطة، الذي أغاظه تقرير العريف بما فيه الكفاية، وهو التقرير الذي يميل إلى فرضية حدوث جريمة قتل؛ ومستنداً الى معلومة وردت بأن الضحية كان منفصلاً عن زوجته (أو كما يُرجّح هو، قد هجرته زوجته)، كان رئيس الشرطة إذاً يدعم بذلك فرضية الانتحار التي تبنّاها. أما السؤال حول الدافع لاتصاله بالشرطة قبل أن ينتحر، فقد طرحه مراراً على نفسه، إلا أنه لم يجد فيه ما يقوّض عناصر فرضيته: لقد أراد الرجل، كان يجيب في سرّه، أن ينتحر علانية أمام أنظار رجال الشرطة ليضفي على فعلته هذه مسحة من التميّز والاستعراضية. فلا بدّ أنه أصيب بمسّ ما. ولكن العريف باصراره على مضمون المخابرة الهاتفية، أوضح لرئيس الشرطة أن

انفصال الرجل عن زوجته قد تمّ منذ اكثر من عشر سنوات. ومهما كان مقدار الألم الذي يُسببه مثل هذا الأمر، إلا أنه يصعُب أن نصدّق أن حدثاً من هذا النوع قد يصل بالمرء الى ذروة يأسه بعد عشرة أعوام، والحقيقة ان ما بلغ ذروته في ذلك الحين هو غضب رئيس الشرطة حيال العريف، «اياك ان تتجرّأ على ابداء ملاحظات من هذا النوع، قال الرئيس، واستدعى المفوّض على الفور، ليحضر حالاً حيثما كان».

ولكن المفوّض لم يكذّب خبراً وبقي متوارياً حتى صباح الاثنين. عند الثامنة تماماً دخل الى المكتب، حيث كان العريف، مُتلحفاً بمعطف ومعتمراً قبعة وقد تلفّح بشال من الصوف يغطي فمه، من دون أن ينسى القفاز بالطبع. نزع عنه كل هذه الأطمار مرتعداً: «البرد هنا قارس كما في الخارج: لو يعبر عصفور في سمائنا الجامدة لخرّ صريعاً على الفور».

لقد بلغه النبأ عبر الراديو والصحف قال. ثم راح يقرأ تقرير العريف المفصّل قبل أن يقصد مكتب رئيس الشرطة للتشاور معه.

حين عاد إلى المكتب بدا غاضباً من العريف، «دعنا لا نؤلف روايات»، قال محذّراً. إلا أن الرواية كانت قد أصبحت شائعة. ولم تمض ساعتان حتى وصل البروفسور كارميلو فرانتسو، وهو صديق قديم للضحية، وجلس في مكتب المفوّض ليغذي الرواية اياها. وروى أنه يوم السبت الواقع في 18 آذار، رأى ومن دون سابق انذار، جيورجيو روتشيلاً يصل الى منزله. اما تفسير هذه العودة المفاجئة: لقد تذكر ان الخزنة التي لا بدّ أنها لا تزال في السقيفة تحوي رزم من رسائل قديمة: رسالة من «غاريبالدي» موجّهة الى جدّ جدّه، وأخرى من «بيرانديللو» موجهة الى جدّه (فقد كانا سوياً

على مقاعد الدراسة)؛ ورادوته فكرة استعادة هذه الرسائل. والعمل قليلاً عليها. وطلب منه ان يرافقه، بعد ظهر ذلك اليوم، الى الڤيلا؛ ولكن للأسف الشديد كان على البروفسور، بعد ظهر ذلك اليوم بالذات، ان يجري عملية غسل الكليتين المعتادة، وهي ضرورية اذا لم يُرد ان يصاب لأيام عديدة بالشلل التام وتسمم الدم. والحال، انه لمن دواعي سروره العظيم ان يرى الڤيلا مجدداً بعد كل هذه الأعوام. وافترقا بعد ان تواعدا على اللقاء في صبيحة، اليوم التالي، الأحد: ولكن مساء يوم الأحد حمل اليه، عبر الراديو، نبأ وفاة صديقه.

وكان في جعبة البروفسور ما يضيفه ايضاً؛ وهذه الاضافة تمس جوهر القضية لا ظاهرها. فمساء يوم السبت تلقى اتصالاً هاتفياً من صديقه. كان يتصل من الڤيلا: ويقول أولاً: «ما كنت أعلم أن المنزل مجهّز بهاتف»؛ ثم يقول انه خلاف تفتيشه عن الرسائل في السقيفة عثر، بالضبط، عثر على اللوحة العتيدة». «أي لوحة؟»، سأله البروفسور. «تلك التي فقدت منذ بضع سنوات: الا تذكر؟» قال روتشيلاّ. ولم يفطن البروفسور بالضبط الى ما يذكره به صديقه فنصحه بأن يتصل بالشرطة على أي حال.

«انها حكاية معقّدة»، قال المفوض بمزيج من الاهتمام وعدم التصديق: «اللوحة والهاتف، امران اكتشفهما السيد روتشيلاّ لحظة اتصاله بك...» وبنبرة تنم عن ارتياب واضح، قال مخاطباً البروفسور: «وانت هل صدّقت؟

ـ لم أشكك يوماً في ما يقوله لي. لمَ تريدني أن لا أصدّق ما قاله لي في يوم أمس الأول؟».

في تلك الأثناء فتح العريف دليل الهاتف وراح يقلّب صفحاته،

ثم قرأ: «روتشيلاّ جيورجيو مونتيروسو، كفر كوتوينو، 342260. . . انه موجود في الدليل.

ـ شكراً لك، قال المفوض لئيماً. . . ولكن ما يحيّرني ليس انه موجود في الدليل بل ان الرجل لم يعلم من قبل أن الهاتف موجود.

ـ بإمكاننا. . . . همّ العريف بالقول.

ـ بإمكانك أنت: وستتولّى الأمر على الفور. . . اذهب الى مركز الهاتف واستحصل على كل المعلومات الممكنة، تاريخ التقدّم بالطلب وتاريخ التركيب، والفواتير المسدّدة. . واحضر لي نسخاً من كل هذه. . .» ومخاطباً البروفسور اردف قائلاً: «لنعد الى موضوع تلك اللوحة: التي فقدت، ثم ظهرت، ثم فقدت مجدداً على الأرجح. . . لقد بدا لي انك تعرف شيئاً في شأن تلك اللوحة التي ذكرها صديقك. . .

وانت؟ أجابه البروفسور.

ـ أنا لا، قال المفوّض. لست خبيراً في شؤون الرسم؛ أما اللوحات المفقودة فهناك اعداد كبيرة منها في ايطاليا، ويتولى احد الزملاء المتخصصين مثل هذه القضايا في روما. طبعاً سنتصل به لسؤاله على سبيل الاستشارة. . . ولكن في الأثناء، لمَ لا تحدّثنا قليلاً عن تلك اللوحة المفقودة؛ ألا يمكن برأيك أن تكون. . .

ـ لست خبيراً في شؤون اللوحات المفقودة، قال البروفسور.

ـ ولكن لا بد انك توصلت الى فرضية ما في هذا الشأن.

ـ انها بالذات الفرضية التي ينبغي ان تتوصل اليها أنت.

ـ يا الهي: دائماً الحكاية نفسها. . . حتى مع من يحملون لقب بروفسور.

ـ ومع المفوّضين ايضاً. أجاب البروفسور بكثير من الحدة.

تمالك المفوّض نفسه؛ فلو كان المتبجّج الذي امامه شخصاً آخر لما تردد لحظة في رميه في زنزانة. إلا أن البروفسور فرانتسو شخصية مرموقة وتحظى باحترام أهل المدينة جميعهم؛ أجيال من الطلاب تحفظ له امتناناً لا يخلو من المودة والحب. لذلك آثر أن يتابع حديثه على النحو التالي: أرجو ان تعيد على مسمعي حرفياً، اذا استطعت، ما قاله لك صديقك خلال اتصاله الهاتفي».

وراح البروفسور يردد بعصبية أقواله السابقة، وبلغ به حنقه مبلغ الاصرار على تقطيع عباراته وفق مخارجها اللفظية الظاهرة، دلالة على الاستياء.

«ألم تنسَ شيئاً؟ قال المفوض لرد الكيل كيلين.

ـ لدي ذاكرة جيدة، ولم أعتد اغفال شيء.

ـ حسناً، حسناً، قال المفوّض؛ ولكن اعلم جيداً أنك، في غضون أيام سيتوجب عليك ترداد ما قلته الآن حرفياً أمام القاضي».

افترّت شفتا البروفسور عن ابتسامة عبارة عن مزيج غريب من الشفقة والازدراء. الا ان رئيس الشرطة الذي كان أحد تلاميذ البروفسور، دخل الى غرفة المكتبة ووضع حداً لتلك المشاحنة المكتّاة.

«أنت ايضاً، يا أستاذي؟

ـ وجاء بحكاية تثير الاهتمام»، قال المفوض.

ولكن عودة العريف من مهمته استثارت بعض ما ساد في السابق من أخذ وردّ:

«الطلب موجود، ويعود تاريخه الى ثلاثة أعوام خلت؛ ولكن

التوقيع مزوّر... وقد تحقق رجال الدرك من هذا الأمر». «اللعنة!» صرخ رئيس الشرطة: وكانت لعنته تنصب على رجال الدرك.

ولكن بفضل شهادة البروفسور، وبعد تهافت فرضية الانتحار التي تبناها رئيس الشرطة منذ البداية ورفضها عقيد الدرك على الفور، اضطر هذا وذاك، بايعاز شديد اللهجة من قبل رؤسائهما الى التعاون وتبادل المعلومات والشكوك والفرضيات. ولذلك التقيا، كل على سلاحه، اذا جازت العبارة؛ الا انهما لم يُفلحا، على الرغم من الجهد الواضح والمبذول من كلا الطرفين لذلك، في أن يجعلا اللقاء غير مثمر أو محصور في العموميات والفرضيات الغامضة.

وهكذا نجحا في اعادة ترتيب مسلسل الأحداث: لقد عاد السيد روتشيلاّ الى بلدته فجأة بعد غياب أعوام طويلة، تحدوه الرغبة، وكذلك الفضول، في العثور على رسالتي غاريبالدي وبيرانديللو، وفور وصوله قصد منزل صديقه وذهبا لتناول طعام الغداء في مطعم؛ وكان قبل ذلك قد عرّج على منزله في المدينة لاحضار مفاتيح الڤيللا أو أنه كان يحملها معه أصلاً. بعد ذلك أقلّته سيارة أجرى إلى الڤيللا وهناك لم يصرف السائق إلا بعد التثبت من أن المفاتيح ما زالت صالحة، ثم شرع بالتفتيش عن الرسالتين. لكن ما الذي جرى بعد ذلك؟ لقد وجد أن المنزل بات مجهزاً بهاتف؛ ولم يُبد استهجاناً كبيراً حيال الأمر، حسب ما ورد في أقوال البروفسور. ما يعني أنه كانت لديه فكرة ما حول الشخص الذي طلب تجهيز البيت بالهاتف. إلا أن ما أذهله، لا بل ربما أفزعه، في المقابل، هو عثوره على تلك اللوحة اثناء تفتيشه عن الرسالتين في السقيفة. وهذا ما يفسّر اتصاله الهاتفي بصديقه ثم بمخفر الشرطة. وبما أن رجال الشرطة ابطؤوا في الحضور، شرع يكتب: «لقد وجدت...»؛ إلا أن خوفه الشديد دفعه الى نبش مسدسه الماوزر القديم. وفي تلك

اللحظة متنفساً الصعداء: ان رجال الشرطة قد وصلوا أخيراً. وهرع ليفتح الباب. إلا أن الطارق كان قاتله.

نقطة ينبغي ايضاحها: هل تمّ تركيب الهاتف دون علم منه بالفعل؟ وهل كان سبب عودته الفعلي رغبته في العثور على رسالتي غاريبالدي وبيرانديللو؟ وهل رأى بالفعل تلك اللوحة العتيدة أم أنه كان يتحدث عن لوحة عادية من مقتنيات الأسرة كان نسيها ثمّ ظهرت فجأة من بين أسقاط السقيفة المهملة؟

وبدا أن أول ما يتوجب القيام به هو تفتيش أكثر دقّة للڤيللا. الا ان التوصل الى مثل هذا القرار تزامن مع واقعة طرأت أثارت الكثير من البلبلة والاضطراب. قطار بعربة واحدة يكون عادة في مثل ذلك الوقت ـ الثانية من بعد الظهر ـ مزدحماً بالطلاب، توقف عند حاجز مبدّل الاتجاهات عند اشارة الوقوف على مقربة من محطة مونتيروسو. ومكث هناك منتظراً تبدّل الاشارة ليعبر: ولكن نصف ساعة كاملة انقضت دون أن تبدّل اشارة الوقوف الحمراء.

كانت الطريق العمومية للسيارات موازية لخط السكة الحديد. وقد ترجل الطلاب وتجمهروا قرب القاطرة وانضم اليهم بعض عمال السكة الحديد وراحوا يصبون اللعنات وعبارات السخرية على ناظر محطة مونتيروسو الذي إما انه نسي أن يُبدل ضوء الاشارة، واما انه أغرق في سبات عميق أثناء الخدمة.

في تلك الساعة تكون حركة مرور السيارات شبه معدومة: سيارة واحدة توقفت بمحاذاة الحشد للسؤال عمّا أصاب القطار. سيارة ڤولڤو. وطلب سائق القطار من سائق السيارة ان يسديه خدمة: وهي أن يصعد الى محطة مونتيروسو ويوقظ الناظر من نومه. وبالفعل اتجهت الڤولڤو نحو المحطة وشوهدت وهي تتوقف أمامها، ثم

توارت عن الأنظار. فلا بدّ أن سائقها ارتأى ان يسلك طريقاً أخرى.

وبما أن الضوء الأحمر لم يتبدّل، صمّم سائق القطار، ومعه بعض الركاب، على التوجه سيراً الى المحطة التي تبعد صُعُداً خمسمئة متر: وهناك اكتشفوا بهول عظيم ان ناظر المحطة وعامل التبديل نائمان بالفعل، لكنه نوم الابدية. كانا مقتولين.

وعلى الفور، استدعي، دون تمييز أو تحيّز، رجال الدرك ورجال الشرطة في وقت معاً: وسرعان ما شرع هؤلاء مجتمعين في حملة تفتيش وتحرّ عن سائق سيارة الڤولڤو. ولم يبد أن صعوبات كبيرة قد تعترض مثل هذه الحملة اذا أخذ بعين الاعتبار انه لا يوجد في المنطقة كلها أكثر من ثلاثين سيارة ڤولڤو: ولا بدّ ان مثل هذا الاعتبار قد خطر ايضاً ببال سائق الڤولڤو، عندما نمي اليه عبر الراديو ان الشرطة تبحث عنه وادرك انها سرعان ما ستعثر عليه. فقصد مركز الشرطة، مُرغماً بالطبع وبشيء من الخشية والتوجّس، ولكنه فعل ذلك تلقائياً وعلى الفور، كما ورد في السطور الأولى من المحضر الرسمي الذي حرر هناك.

الاسم والشهرة؛ مكان وتاريخ الولادة، مكان الاقامة، المهنة؛ وسؤال عمّا اذا كان من أصحاب السوابق.

«لم أرتكب حتى مخالفة سير»، قال الرجل. إلا أن ما صرّح به حول مهنته أتاح للمفوّض تلك البهجة التي لا توصف في الشروع في استجوابه الفظّ: فالرجل يعمل مروّجاً للعقاقير الطبية والأدوية.

«هل تملك سيارة ڤولڤو؟ .

ـ بالطبع.

ـ لا تخاطبني بمثل هذه العبارة: بالطبع، حين يكون كلامك موجهاً إليّ... والڤولڤو سيارة باهظة الثمن».

فوافق الرجل على ملاحظة المفوض.

«هل تشتمل العقاقير التي تروجها على مشتقات الهيروين والكوكايين والأفيون؟

ـ اسمع، قال الرجل متمالكاً غيظه وخوفه، لقد جئت اليكم، طوعاً، فقط لأخبركم بما شاهدته بعد ظهر البارحة.

ـ اخبرنا اذاً، قال المفوض بنبرة تشكيك.

ـ لقد صعدت الى المحطة تلبية لطلب سائق القطار. وطرقت الباب الزجاجي لمكتب ناظر المحطة ففتح لي. . .

ـ من؟

ـ ناظر المحطة على ما أعتقد.

ـ أنت لا تعرفه اذاً؟

ـ كلا. وقلت له ما قاله لي سائق القطار حرفياً. لم ألق إلى داخل المكتب إلا نظرة خاطفة: حيث لمحت رجلين آخرين، وكانا منهمكين بلفّ سجّادة. . . ثم غادرت المكان.

ـ وقد سلكت طريقاً مختلفة، قال المفوض وبما أن أحداً لم يَرَكَ في طريق عودتك. . . اذاً، كان الرجلان منهمكين بلّف سجّادة.

ـ «انها اللوحة» قال العريف بعفوية.

فرمقه المفوض بنظرات صاعقة: «اني شديد الامتنان لك، ولكن أحسب أنني أستطيع التوصل الى مثل هذا الاستنتاج دون مشورة منك.

ـ عفوك سيدي، قال العريف، لن أتجرأ يوماً. . .»؛ وبشيء من اللباقة والارتباك أردف متلعثماً: «انك، انك تحمل شهادة الاجازة».

لم يؤد جواب العريف الذي بدا للمفوض انه يبطن سخرية ما،

الى تسوية الأمور بل زاده غيظاً: ولكن حيال صاحب سيارة الڤولڤو. «اني آسف فعلاً ولكن يجب أن تبقى قيد التوقيف الاحترازي: فهناك عدد من الأمور ينبغي التثبّت من صحتها».

العريف انطونيو لاغندرا من مواليد ضاحية ريفية تقع على مقربة من المدينة، بحيث يمكن اعتبارها جزءاً منها. والده عامل زراعي استطاع بجهده أن يرتقي الى مرتبة بستاني ـ ذي خبرة، يتهافت أصحاب الأرض على استئجار خدماته ـ توفي اثر سقوطه من أعلى شجرة كرز كان يقلّم اغصانها اليابسة، وقد طرأت هذه الحادثة المأساوية حين كان العريف يتابع السنة الأخيرة لنيل شهادة في الاقتصاد والتجارة. إلا أنه أنهى دراسته بنجاح وحصل على الديبلوم دون أن يعينه ذلك على تدبّر أموره أو العثور على عمل، لذا التحق بالشرطة. وبعد خمس سنوات في الخدمة، أصبح ضابط صفّ برتبة عريف. راقت له مهنته هذه، لا بل شغف بها، ولذلك صمّم على المضي في تفانيه للحصول على ترقيات أخرى. ولهذا الغرض التحق بكلية الحقوق حيث يتابع الدروس متى وكيفما استطاع؛ وكان ينكبّ على الدراسة باجتهاد ملحوظ. كانت اجازة الحقوق اقصى ما يطمح إلي في حياته؛ كانت حلمه: ولم تكن الملاحظة التي أبداها عفواً وبدت للمفوض مبطنة وخبيثة، سوى تعبير عن قناعاته الساذجة. كان المفوض لا يزال مغتاظاً حين عاد العريف بعد اقتياده صاحب الڤولڤو الى النظارة وسط صراخ هذا الأخير احتجاجاً والذي أقام المخفر ولم يقعده.

«اني حائز على اجازة، أليس كذلك؟... لم أدرك الى اليوم، اذا كنت مجرد ابله أم تتظاهر بالبله... مُجاز! في بلد أصبح فيه المأمورون ونُدُل الفنادق وكنّاسو الشوارع من حملة الاجازات.

ـ اني آسف، قال العريف بصدق وانما بنبرة لا تخلو من العدوانية.

ـ دعنا من هذا... سأذهب الآن للقاء الرئيس: انتظر ربع ساعة، ثم اصطحب صاحب الڤولڤو اليه».

كان عقيد الدرك في مكتب رئيس الشرطة، فقد اخطرهما المفوض بما استجد. وعندما دخل عليهم صاحب الڤولڤو برفقة العريف، بادره رئيس الشرطة بالقول: «هكذا اذاً، لقد رأيت في مكتب ناظر المحطة ثلاثة رجال يلفون سجادة. هل رأيت جثة داخل السجادة؟

ـ جثة؟ طبعاً لا.

ـ كم كان عرض السجادة؟

ـ لا أدري... متراً ونصف المتر ربما.

ـ وكيف لك أن تؤكد انها سجادة؟ سأل العقيد.

ـ انا لا أؤكد شيئاً: لقد بدت لي على أنها سجادة.

ـ صِفْها.

ـ كانوا يلفونها مقلوبة على ما بدا لي: مجرد نسيج خشن أبرش....

ـ إلا أن قفا السجادة لا يكون هكذا. أثمة احتمال انهم كانوا يلفون لوحة؟

ـ انه أمر محتمل.

ـ لنتحدث عن شيء آخر... الرجال، كما قلت، كانوا ثلاثة.

ـ أجل ثلاثة».

عندئذ، اقترب منه رئيس الشرطة، وطلب منه أن يمعن النظر في صورتين فوتوغرافيتين كان يحملهما بيده.

حسب انهم يريدون الايقاع به؛ ولعنهم الرجل في سرّه: «أتعرّف الى ماذا؟ لم أرَ هذين الرجلين في حياتي.

ـ أوتدري من هما؟ ناظر المحطة وعامل التبديل: انهما، بالضبط، الرجلان اللذان تعرضا للقتل.

ـ لكني لم أرهما!

ـ لكنك قلت انك رأيت ناظر المحطة وتكلمت معه!

ـ لقد تحدثت الى شخص حسبت انه ناظر المحطة.

ـ إني آسف، قال رئيس الشرطة، ولكني مجبر على ابقائك هنا رهن التوقيف».

وراح الرجل البائس يصرخ مجدّداً محتجاً ببراءته.

قام رئيس الشرطة وعقيد الدرك من جهتهما باطلاع المدّعي العام على ما توصلا اليه في تحرياتهما. فبدا هذا الأخير مُستغرقاً في تفكير عميق، ثم قال: «أوتدري ما هو اعتقادي؟ كل ما في الأمر، وبتضافر كل المصادفات الممكنة، أعتقد أن صاحب سيارة الڤولڤو دخل الى مكتب ناظر المحطة وشاهد تلك اللوحة، فأُعجِب بها، لا بل شغف بها كالحب من النظرة الأولى، فقتل الرجلين واستولى عليها».

تبادل رئيس الشرطة والعقيد نظرات تنضح بالحيرة والسخرية. «لا أدري من أين يأتيني هذا الشعور المفاجئ بالتعاطف مع صاحب سيارة الڤولڤو. لقد أحببته. وفي مثل هذه الأمور قلّما يخطئ حدسي. لذلك استبقوه قيد الاحتجاز، واجعلوه دائماً على أهبة الاستعداد». ثم صرفهما لكي يستمع، بمفرده، الى أقوال البروفسور العجوز فرانتسو.

وخلال مغادرتهما مكتبه، لم يتمالك رئيس الشرطة قوله: «آه، بحق السماء!»، والعقيد: «فظيع!».

في الأثناء نهض المدّعي العام لاستقبال أستاذه العجوز». انه لمن دواعي سروري العظيم ان نلتقي مجدداً، بعد كل هذه الأعوام!

ـ أعوام طويلة بالفعل: ويبدو انها أصبحت تثقل عليّ، قال البروفسور مجاملاً.

ـ دعك من هذا الكلام. ارى انك لم تتغيّر، حتى في المظهر.

ـ اما انتم فقد تغيّرتم، اجاب البروفسور بصراحته المعهودة.

ـ انها هموم هذا العمل اللعين... ولكن لمَ استخدام القاب الفخامة؟

ـ كما في السابق، اجاب البروفسور.

ـ ولكن من الآن فصاعداً...

ـ لا.

ـ ولكنك تذكرني جيداً؟

ـ بالطبع اذكر سعادتك.

ـ وهل تسمح لي بأن أطرح عليك سؤال؟... بعد ذلك سأطرح عليك أسئلة أخرى، مختلفة... في مسابقات اللغة الايطالية كنت تضع لي دائماً علامة 3، لأنني كنت أغشّ. ولكن ذات مرة حصلت منك على علامة 5: لماذا؟

ـ هذا لأنك نسخت موضوعك عن مؤلف اكثر ذكاء».

فأطلق المدعي العام ضحكة مدوية: «اللغة الايطالية: لم أكن ضليعاً بالايطالية كما تعلم، ولكن في آخر الأمر، تبيّن أنها ليست كارثة، والدليل، ها أنذا كما تراني الآن، أصبحت مدعياً عاماً.

ـ اللغة الايطالية ليست اللغة؛ انها ملكة التفكير، قال البروفسور. ولو كنت أقل معرفة بها مما كنت عليه لربما أصبحت الآن في مناصب أرفع».

كان الردّ جارحاً. فشحُب ممثل الجمهورية لشؤون العدالة. وانتقل الى استجواب شاق.

في اليوم ذاته وصل الى المدينة كل من ابن القتيل، قادماً من ادنبرغ، وزوجته قادمة من شتوتغارت. وكان لقاء الأم وابنها غير ودّي على الاطلاق، على الرغم من وجود المحققين الذين شهدوه. فمن الواضح أن الزوجة جاءت لتنتزع ما أمكنها من الميراث. أما الابن فلا بدّ أنه جاء ليحول دون أن تحقق مأربها، ولكن أيضاً رغبة منه في معرفة ظروف مقتل والده ومن الذي قتله.

لقد جرى اللقاء في مكتب رئيس الشرطة. ولم يتبادلا التحية، بل الأحرى ان التحية الوحيدة التي بادرها بها الابن هو قوله بجفاء: «بامكانك العودة من حيث أتيت، الى شتوتغارت، لن تنالي شيئاً.

ـ هذا ما تقوله أنت.

ـ ليس أنا من يقول هذا، بل الأوراق التي سجلها أبي منذ سنوات.

ـ لست واثقة من أن لمثل هذه الأوراق أي قيمة، وانها ليست قابلة للطعون. . . هيا فلنتفق فيما بيننا، ولنبع كل الممتلكات ونغادر هذا المكان.

ـ ليس في نيتي أن أبيع: وربما قررت أن أمكث هنا. لقد جئت من قبل وأقمت هنا لفترة طويلة منذ بضع سنوات؛ في ذلك الوقت كان جدي وجدتي لا يزالان على قيد الحياة. وما زلت أحفظ لهما ذكرى طيبة، بل رائعة. . . بلى، قد اعقد العزم على البقاء هنا.

ولطالما كنا نخطط، والدي وأنا، للعودة الى هذا المكان لنقضي بقية حياتنا فيه.

ـ برفقة والدك! قالت المرأة بنبرة ساخرة.

ـ تقصدين انه لم يكن أبي؟ اسمعي جيداً: ليس لنا ان نختار أمهاتنا، وإلاّ لما اخترتك بالتأكيد. . . وفي المقابل لما كنت اخترتني ابناً. . . اما الآباء فنختارهم. ولقد اخترتُ جورجيو، لقد أحببته، وبكيته بعد موته: لقد كان أبي. أما أنت فتعلقين الكثير من الأهمية على حقيقة أنك ضاجعت رجلاً آخر؛ أو الأحرى، رجالاً آخرين».

فما لبثت يد الأم المطلية الأظافر والمختمة ان فرقعت على خدّ ابنها. فأولاها الابن ظهره وراح يتأمل الكتب فوق الرفوف كأنه معنيّ فعلاً بما يراه منها. كان يبكي.

قال رئيس الشرطة: «تلك هي شؤونك الخاصة. ما أودّ أن تطلعيني عليه يا سيدتي، هو ما إذا كانت لديك أي شكوك أو تفسيرات حول مقتل زوجك».

هزّت المرأة كتفيها بلا مبالاة. لقد كان صقليّاً، قالت، والصقليون يقتتلون في ما بينهم منذ سنوات طويلة. ولا أحد يدري لماذا.

ـ يا له من استنتاج قاطع، قال الابن بسخرية واضحة وقد عاد وجلس وراء المكتب قبالة رئيس الشرطة.

ـ وأنت ماذا تقول، ماذا تعلم بهذا الشأن؟ سأله الرئيس.

ـ حول الأسباب التي دفعت إلى قتله، لا أعلم شيئاً على الإطلاق؛ وآمل أن اطلع عليها، عاجلاً، أم آجلاً، بفضل جهودكم. . . أما الباقي. . .» وراح يتحدث عن قرار والده بالعودة إلى الفيللا للعثور على رسالتي غاريبالدي وبيرنديللو، وعن أسفه

الشديد لأنه لم يستطع أن يرافقه، وعن الاتصال الهاتفي الذي يؤكد أنه تلقاه من والده ليطمئنه إلى أن رحلته كانت جيدة. ولا شيء آخر. «حدّثني عن ممتلكاتكم هنا. هل كانت مهملة فعلاً ومهجورة؟

ـ أجل ولا. كان والدي بين الحين والآخر يراسل رجلاً من الناحية، أظنّ أنه كاهن، ليستعلم عن حال الممتلكات ومقدار الرعاية بها.

ـ أتقصد أن الكاهن كان مكلفاً برعايتها؟

ـ ليس بالضرورة، على ما أعتقد.

ـ وهل كان والدك يرسل إليه مالاً؟

ـ لا أعتقد.

ـ وهل كان يردّ على رسائل والدك؟

ـ أجل، وكان يجيب دائماً بأن الحال لا بأس بها، برغم الإهمال.

ـ وهل كان الكاهن يملك مفاتيح المنزل في المدينة ومفاتيح الڤيللا؟

ـ لا أدري.

ـ أتذكر اسمه؟

ـ كريكو، كما أعتقد... الأب كريكو، ولكني لا أستطيع الجزم».

أكّد الأب كريكو ـ وهو رجل وسيم الطلعة، طويل القامة، ذو مهابة في جبّته ـ انه لم يحصل على المفاتيح أبداً: كان يتفحص حالة المنزل والڤيللا من الخارج: وجُلّ ما كان يفعله انه كان يؤكد في رسائله أنّ المبنيين لا يزالان قائمين، لم تتشقق جدرانهما أو تتداعى.

كان المفوض هو من يتولى التحقيق ـ لبقاً، كيّسا ـ فيما يتولى العريف تدوين المحضر. فبادر إلى السؤال: «أنت من بين قلّة من رجال الدين الذين يصرون إلى الآن على ارتداء الزي الكهنوتي. وهذا أمر، لا أدري لماذا، يجعلني مطمئناً.

ـ إني كاهن من الطراز القديم. وأنت كاثوليكي من الطراز القديم. وهذا شأننا، وليس لدي ما أضيفه حول هذا الموضوع بالذات.

ـ بصفتك كاهناً ورجلاً عاقلاً وصديقاً للضحية، ماذا لديك حول هذه القضية؟

ـ على الرغم من كل هذه الحبكة الروائية التي تُنسجُ حول القضية، أعترف أني لا أستطيع أن أطرد من رأسي فرضية الانتحار. جورجيو لم يكن رجلاً سعيداً.

ـ أجل؛ تقصد زوجته، وابنه الذي لم يكن ابنه. . . قال العريف مفسّراً.

ـ ولكن يبدو أن رجال الأدلة الجنائية. . .

ـ أجل؛ لقد عثرت الأدلة الجنائية على أكثر من بصمة للفقيد على المسدس؛ ولكنها، تحديداً، وجدت أن هذه البصمات وكأنها مُحيت عند الموضع الذي ينبغي أن يمسك به المسدس ليطلق النار، وكأنه أمسك المسدس بيد مقفّزة. . . ولكني، على الرغم من كبير احترامي للأدلة الجنائية، لا أثق كثيراً بقطعية أحكامها».

وقال العريف الذي لم يتخلّ عن عادته المشينة في حشر أنفه في ما لا يعنيه: «وأنا أيضاً، لا أثق بها على الإطلاق. ولكن من المستحيل أن نتخيّل رجلاً يرتدي قفازاً لحظة إمساكه بالمسدس بقصد الانتحار، وأن يتسنى له نزع هذا القفاز بعد انتحاره والتخلص منه. وإلاّ لكانت حكاية من حكايات هيلزا بوبين.

ـ إنك تستمتع جيداً، أليس كذلك... هيا، تابع استمتاعك...
قال المفوض بنبرة حادّة...

قررت السلطات القضائية والبوليسية القيام بحملة تفتيش دقيق للفيلا بحضور الزوجة والابن والبروفسور فرانتسو أيضاً. على أن يرافقهم إلى مسرح الجريمة كلاً من المفوض والعريف وزمرة من رجال الشرطة الآخرين. إلا أن الأب كريكو اعتذر عن عدم الحضور: ذلك أن رؤية المكان من شأنها أن تسبب له انفعالاً ليس في طاقته احتماله وان حضوره إلى هناك كمثل عدم حضوره.

تولّى العريف اصطحاب البروفسور من منزله. ما يعني أنهما ترافقا طوال الوقت الذي استغرقته رحلتهما القصيرة والتي لم يشاركهما بها أحد، وكان ذلك من دواعي سرور العريف الذي طالما شُغف بتبادل أطراف الحديث مع أناس عرفوا بالذكاء وسعة الثقافة. إلا أن البروفسور قصر كلامه على مظاهر شقائه الشخصي، تاركاً، في ذاكرة العريف (وإن كان هذا الأخير لا يملك أن يشاطره الرأي نظراً لما تنضح به ثلاثونه من حيوية) صدى تلك العبارة والتي مفادها أن في لحظة ما من الحياة لا يعود الرجاء هو آخر ما يموت، بل يصبح الموت هو الرجاء الأخير.

كان البروفسور يعرف المكان جيداً، فقد أمضى في كنفه ساعات من طفولته وصباه برفقة صديقه. وكانا يهمّان باجتياز المباني التي تسوّره حين أشار إلى المخازن وقال: لقد كانت اصطبلات في ما مضى. إلا أن ما لفت العريف وأذهله هو أن أبوابها كانت مفتوحة وقد اختفت الأقفال. وحسب للوهلة الأولى أنها لا بد أن تكون فعلة رجال الدرك، وما لبث أن لفت انتباه المفوّض إلى هذا الأمر، وما أن دخلا إلى الفيلا حتى اتصلا بمخفر الدرك.

لا، رجال الدرك لم يفتحوا الأبواب، ولا يملكون أي معلومات بهذا الشأن.

وبدافع عن عصبيته المتوقّدة تفقّد العريف المخازن، مخزناً تلو الآخر. كانت تسودها رائحة سكر محروق وأوراق الأوكاليبتوس الممضوغة والكحول: رائحة لا يمكن تحديدها بالضبط. فقال المفوّض: «ألا تشم هذه الرائحة؟

ـ لا أشم شيئاً، إني مصاب بالزكام.

ـ ينبغي استدعاء خبراء المعمل الجنائي؛ وكلاب الجمارك المدرّبة.

ـ إن أفضل الكلاب هو أنت، قال المفوض، وبأي حجة سنستدعي الخبراء والكلاب».

أمام باب الفيلا كان الآخرون ينتظرون. كان المفوّض يحمل المفاتيح فأعطاها للعريف قائلاً: «افتح وكن دليلنا: إنها المرة الأولى التي أزور فيها المكان».

وسرعان ما انتشر الشرطيون في أرجاء المكان كأنهم يقتحمون وكراً للّصوص. أما الابن فمكث يتلفّت من حوله وقد التمعت عيناه لشدّة الانفعال، فيما وقفت المرأة لامبالية، كأنها تعاني من ضجر مزمن.

لم يجد الشرطيون في الطبقة السفلى ما لم يسبق لهم أن رأوه. فصعدوا إلى الطبقة الأولى ودخلوا إلى المطبخ. كان الباب الضيق الذي يفضي إلى السلم الموصل إلى السقيفة مفتوحاً على عتمة مطبقة. فتوقفوا هناك. ثم تقدّم المفوض وتسلّق، برشاقة وثقة في النفس، السلم الخشبي الضيّق: وما أن وصل إلى أعلاه سطع الضوء ينير السقيفة. فتبعه الآخرون.

كان العريف إذ يتنقّل بحذر بين الأسقاط المبعثرة والمتروكة يجيل أبصاره متفحصاً الجدران.

ـ عمّ تبحث؟ سأله المفوّض.

ـ عن زر الكهرباء.

ـ آه، بلى، لقد حاولت ولكنك لم تجده. الأمر بسيط: انه خلف التمثال النصفي للقديس إينياس.

ـ ولكنه غير مرئي؟ قال العريف.

ـ مجرد حدس، قال المفوض. وأردف مداعباً: لا تقل لي انني وجدته لأنني من حملة الإجازة؛ إلا أن عينيه أصبحتا كابيتين كأنه مذعور.

«لن أقول شيئاً»، قال العريف واجماً.

فوق الخزنة كان ثمة أثر واضح، لأنه غير مكسو بطبقة كثيفة من الغبار، ما يدلّ على أن شيئاً ما رُفع من مكانه بعد أن وضع هناك لفترة طويلة. ربما كانت اللوحة الملفوفة، قال العريف في سرّه، وما لبث أن أعلن ما كان في سرّه جهاراً. لقد رآها روتشيللا المسكين إذاً قبل أن يفتح الخزنة ليخرج منها رسائل غاريبالدي وبيرنديللو. وكان البروفسور قد رأى هذه الرسائل أيضاً منذ أمد بعيد. وتصفّح بعضاً من رسائل بيرنديللو واستوقفته بضع عبارات منها. فقد كان بيرنديللو يفكر وهو لا يزال في الثامنة عشرة من عمره في ما سيكتبه حتى بعد أن يتجاوز الستين.

في طريق عودتهما يسأل البروفسور العريف:

«كم أودّ أن أقرأ رسائل بيرنديللو كاملة.

ـ لا أعتقد أن هناك صعوبة في الحصول على قرار يقضي بأن

تودع الرسائل في عهدتك». إلا أنه كان واجماً، قلقاً، عصبي المزاج، ويفكر في أمر آخر؛ وبدا انه في حاجة إلى أن يسرّ بما يعتمل في قلبه، أن يعبّر عما به. وفجأة أوقف السيارة وراح يبكي بمرارة. «منذ ثلاثة أعوام ونحن نجلس وجهاً لوجه في غرفة مكتب واحدة.

ـ أدرك ما بك، قال البروفسور. زر الكهرباء؟

ـ زر الكهرباء... لقد قال انه لم يدخل إلى الفيلا من قبل: وأنت أيضاً، لقد سمعت ما قاله... أما أنا فقد أشعلت علبة الثقاب كاملة بحثاً عن هذا الزرّ، ثم جاء الآخرون وبحثوا عنه بواسطة مصابيح الجيب... أما هو فقد وجده على الفور، دون تردد.

ـ لقد اقترف خطأ مميتاً، قال البروفسور.

ـ ولكن كيف استطاع أن يفعل ذلك، ما الذي أصابه في تلك اللحظة؟

ـ ربما لحظة فصام مفاجئة: وتحوّل في تلك اللحظة إلى الشرطي الذي يطارد نفسه». وبنبرة غامضة، كأنه يخاطب نفسه، أردف قائلاً: بيرنديللو.

ـ سأطلعك على كل ما أحاول جمعه في سياقه، انطلاقاً من حادثة زر الكهرباء، وعلى نحو حسابي محض.

ـ حسابي... قال البروفسور مبتسماً. ولكن ينبغي أن تبدّد عنك هذه الطريقة الحسابية بعض الشكوك.

ـ ولذا أسألك المساعدة.

ـ قدر ما أستطيع... ولكن هيا لنصعد إلى بيتي حيث لن يزعجنا أحد».

تحادثا لساعات طويلة وتوصّلا إلى استنتاج مفاده أن المجرمين لم يهتموا في الأصل للوحة وأن سرقتها إنما كانت من قبيل الرضوخ المفاجئ لنزوة. وانهم كانوا منهمكين بأمور أخرى في هذا المكان: ولهذا السبب حين وصل السيد روتشيللا على نحو مباغت، قُتِلَ على الفور.

عند الباب، سأله البروفسور قبل أن يودّعه: «ماذا في نيتك أن تفعل. . . ؟

ـ «لا أدري، قال العريف، لا أدري». قال حائراً، مضطرباً.

في اليوم التالي وصل المفوّض إلى مكتبه في موعده المعتاد، مبدياً ذلك المزاج المبتهج حتى القهقهة. نزع قبّعته وقفازيه ومعطفه ووشاحه الملوّن ولكن الأنيق. ودسّ قفازيه في جيب معطفه وعلّق ما نزعه من ثياب في الخزانة. القفّازان. فبينما كان المفوّض يرتعد من البرد الذي يسود غرفة المكتب، مردداً، على جاري عادته كل صباح، ان العصافير سوف تسقط مصعوقة لشدة البرد، كان العريف، وراء مكتبه، يرتعد هو أيضاً، ولكن لأسباب أخرى. القفازان إنّهما القفازان.

«أراك بدأت العمل؟ قال المفوض بمثابة تحية الصباح.

ـ لا أعمل. بل أقرأ الصحف.

ـ وما الأخبار الجيدة؟

ـ لا أخبار جيدة على جاري العادة».

وكان يسود محادثتهما، خلف هذا التبادل اليومي للعبارات الاعتيادية، نوع من الضيق والبرود، وشيء من القلق والذعر.

زر الكهرباء. القفاز. لم يكن العريف يعرف شيئاً، وما كان

ليخطر بباله أن ماكس كلينغر قد وضع بضعة رسوم أسماها «قفاز»، ففي مخيلة العريف كان قفّاز المفوّض يتحرّك ويحوم ويتغضّن كما كان القفاز الآخر في مخيلة ماكس كلينغر.

طاولتاهما كانتا موضوعتين وفق زاوية مستقيمة. وكان كل منهما جالساً وراء طاولته، فيتظاهر المفوّض بأنه مستغرق في قراءة الأوراق التي وضعت أمامه، ويتظاهر العريف بأنه مستغرق في قراءة الصحف.

أكثر من مرة كان العريف يهمّ بالنهوض والتوجه إلى مكتب الرئيس ليطلعه على كل شيء؛ وما كان يروّعه هو يقينه بأن الرئيس لن يجد في أقواله أكثر من افتراءات تنقصها الأدلة القاطعة. أما المفوّض ـ وقد أدرك العريف ذلك ـ فقد كانت أفكاره مختلفة، لا بل إجرامية.

فجأة نهض المفوّض واتجه نحو خزانة صغيرة يخرج منها عبوة زيت منظّف، وخرقة صوف وممسحة وقال: «لقد أهملت تنظيف مسدسي منذ دهر». شهر المسدّس من قرابه المثبت إلى حزامه ووضعه على الطاولة. ثم فتح مخزنه وأسقط رصاصاته فوق الطاولة.

فأدرك العريف ما الذي يجري. أصبحت الكلمات في سطور الصحيفة التي يتظاهر بقراءتها كأنها كائنات تجمد ثم تذوب ثم تتبعثر في عنوان الصفحة الأولى الذي يظن المفوّض أنه سيقرأه في صحف اليوم التالي: «أحد مفوّضي الشرطة يقتل خطأ أحد مساعديه».

قال العريف: «أنا لا أهمل تنظيف مسدسي. . . ولكن هل أنت رام جيد؟

ـ بل رام ممتاز». قال المفوض.

فقال العريف، بهدف تحذيره وإراحة ضميره من وزر ما قد يحدث: ولكن ينبغي التنبه إلى أن إصابة الهدف في الصميم لا تتطلب فقط أن تكون من الرماة المهرة. بل تتطلب شيئاً من البراعة والسرعة.

ـ أعلم. والحال، فكر العريف في سره، انك لا تعلم، أو على الأقل، لا تعلم ذلك كما أعلم أنا.

فور وصوله كل صباح كان يضع مسدسه في الدرج الأعلى، إلى يمين مكتبه. ففتحه بتؤدة دون صوت باليد اليمنى فيما أمسك الصحيفة باليد اليسرى ورفعها قليلاً. كانت يداه قد أصبحتا أكثر رشاقة كأن أيادي أخرى نبتت لهما وتكاثرت، وشعر بأن ملكاته وحواسه استيقظت فجأة. كان كل شيء فيه يرتج كوتر معدني، رفيع ومشدود. واستيقظ في روعه حدس الفلاح الذي يدعوه للحذر والارتياب وتوقّع الأسوأ واستشرافه، وبلغ حدسه هذا ذروة ما يكون عليه.

أنهى المفوّض تنظيف مسدّسه وذخره من جديد ثم راح يصوبه، متظاهراً، نحو المصباح والروزنامة، وقبضة الباب؛ ولكن ما أن صوّبه بسرعة خاطفة نحو العريف حتى كان هذا الأخير قد ارتمى أرضاً متدرعاً بكرسيه وصوب مسدسه من وراء الصحيفة وأطلق رصاصة واحدة أصابت المفوّض في القلب، فسقط فوق الأوراق التي كانت أمامه على المكتب فأغرقتها الدماء.

«لقد كان من الرماة المهرة، قال العريف وهو يعاين الثقب الذي أحدثته رصاصة المفوّض في الحائط خلف المكتب، ولكنني حذرته»؛ كما لو أنه فاز في مباراة. إلا أنه سرعان ما جعل يبكي فتصطك أسنانه من الذعر.

«لنلخّص ما جرى، قال رئيس الشرطة. لنلخّص ونقرّر. . . أقصد: أن يقرر سيدي المدعي العام بنفسه: فلن يلبث رجال الصحافة أن يصلوا تباعاً».

في مكتب المدعي العام، كان هناك أيضاً عقيد الدرك، وقبالتهما، كمتهم في قفص الاتهام، يقف العريف.

«لنلخّص إذاً. . . حسب ما ورد في أقوال العريف التي لا تعوزها العناصر المقنعة، والدلائل التي اعترف أني ارتكبت هفوة عدم الانتباه إلى حقيقة ما تدل عليه، فإن وقائع القضية قد جاءت على هذا النحو الذي سأوجزه لكم: مساء 18 الجاري يتصل السيد روتشيللا بمخفر الشرطة: ويطلب أن يأتي أحد ما إلى منزله ليريه شيئاً. فيجيب العريف بأن أحد رجال الشرطة سيذهب للقائه في أسرع وقت ممكن. ويبلّغ المفوض بمضمون الاتصال الهاتفي ويقترح عليه أن يذهب لاستطلاع الأمر. ولكن المفوّض يجيبه بأنه لا يصدّق هذه العودة المفاجئة للسيد روتشيللا، بعد كل هذه الأعوام من الاغتراب. ويحسب انها مجرّد دعابة. ويطلب من العريف أن يذهب في اليوم التالي إلى الفيلا لتفقد الأمر، ثم يغادر قائلاً انه لا يريد أن يتصل به أحد طوال يوم غد الذي يصادف عيد القديس يوسف. وبالفعل، في اليوم التالي، كان المفوّض متوارياً عن الأنظار يسهل الاعتقاد انه أبلغ شركاء له بعودة السيد روتشيللا غير المتوقعة؛ والأسهل من ذلك الافتراض انه ذهب بنفسه إلى الفيلا، ففتح له المغدور بوصفه مفوّض شرطة، وجلس بجانبه وراء طاولة المكتب حيث كان روتشيللا قد بدأ يدوّن عبارته حول اللوحة التي وجدها؛ وفي اللحظة الحاسمة أمسك بالمسدس الذي وجده على الطاولة كأنه هبة من السماء، وأطلق على رأس مضيفه رصاصة بيد

مقفّزة. بعد ذلك أضاف نقطة إلى عبارة «لقد وجدت»، وغادر المنزل بعد أن أغلق الباب، ذا القفل المرتدّ، وراءه... ويجب أن أعترف أن كل محاولات العريف، لشرح شكوكه حول النقطة المضافة إلى عبارة «لقد وجدت»، لم تنجح في إقناعي آنذاك وبدت لي تفصيلاً تافهاً. فظننت أن روتشللا أصيب بمس مفاجئ سوّغ له الانتحار كحل وانه ارتأى أن ينتحر أمام أعين رجال الشرطة... إلا أن الجثة كانت ستكتشف في اليوم التالي. ومن هنا كانت الحاجة الماسة لتدبّر الأمور خلال الليل. وخلال الليل استدعيت العصابة كلها ونقلت اللوحة، وأدوات «الشغل» غير المشروع كافة إلى مكان آخر.

ـ إلى أين؟ سأل المدعي العام.

ـ برأي العريف، وهو رأيي أيضاً، إلى محطة مونتيروسو، التي ينتمي ناظرها ومساعده إلى العصابة وإن كانا من بين الأعضاء الهامشيين الذين يعملون في الترويج والمساعدة. ولا بد أن ناظر المحطة ومساعده قد أصيبا بالرعب حين شاهدا كل هذه الأدوات الكبيرة الحجم. فاعترضا ربما، أو ربما هددا بشيء ما، فتمت تصفيتهما. وحين وصل صاحب سيارة الفولفو إلى المحطة كانا مقتولين؛ ولهذا السبب فروا سريعاً... صاحب الفولفو لم ير ناظر المحطة ومساعده، لم يرهما أبداً من قبل... وهذا ما ثبت لدينا بعد اطلاعه على صور الناظر ومساعده. فأكد مجدداً أنه لم يرهما... ثم حصلت حادثة زر الكهرباء، التي لم تستلفت العريف وحده.

ـ «يا له من وغد حقير»! قال المدعي العام بمثابة تأبين للمفوّض. ثم أضاف قائلاً: «ولكن يا عزيزي الرئيس ويا عزيزي

العقيد، كل هذا أقل من قليل. . . فماذا لو قلبنا الوقائع باعتبار أن العريف يكذب وانه المعني بكل ما يستند إليه في اتهام المفوّض؟».

وتبادل الرئيس والعقيد النظرتين اللتين تقولان بصمت: «بحق السماء!» و«انه فظيع!» وإن كانا قد تلفظا بها جهاراً منذ أيام قليلة.

«هذا مستحيل» قالا سوية. ثم طلب الرئيس من العريف أن يغادر المكان؛ «انتظر في الردهة، وسنستدعيك بعد خمس دقائق».

لم يُستدع مجدداً إلا بعد انقضاء ساعة كاملة.

«حادثة» قال المدعي العام.

ـ حادثة، قال الرئيس.

ـ حادثة، قال العقيد.

ولذا كتبت الصحف: «بينما كان ينظّف مسدّسه تسبب عريف في الشرطة خطأً بمقتل مفوّض الشرطة القضائية الممتاز».

وبينما كان مخفر الشرطة منهمكاً بإقامة مذبح جنائزي يليق بالمفوّض (إذ ينبغي أن تتخذ الجنازة طابعاً مهيباً) كان صاحب الفولفو قد استدعي من زنزانته لإجراء المعاملات الإدارية البحتة لإطلاق سراحه نهائياً.

وبعد إتمام الإجراءات وفيما كان يهم بمغادرة المكان متعباً ومبتهجاً وقلقاً في وقت معاً، التقى، عند العتبة، الأب كريكو، بقلنسوته وبطرشيله ودرعه لإتمام النذور الأخيرة للفقيد.

أوقفه الأب كريكو بحركة من يده. وقال: «يبدو لي أني أعرفك: هل أنت من أبناء رعيّتي؟

ـ أي رعية؟ لا رعية لي». قال الرجل؛ وغادر باستعجال تستخفه البهجة.

في المرآب، وجد سيارته الفولفو، وعليها محضر مخالفة. إلا أنه لم ير في الأمر ما يثير ضحكه لشدة ما كان مبتهجاً. غادر المدينة طروباً، ولكن فجأة أوقف سيارته وعاوده القلق والوجوم. «ولكن هذا الكاهن، قال في سرّه، هذا الكاهن... لعرفته على الفور لو أنه لا يرتدي ثياب كاهن: إنه ناظر المحطّة، انه من حسبته أنه ناظر المحطة».

وهم بالعودة إلى مخفر الشرطة. ولكن بعد هنيهات: «ما يعني انني سأجلب لنفسي المزيد من المتاعب، وأكثرها تعقيداً؟

عاوده مزاجه الطروب، وتابع طريقه في اتجاه منزله.

الفهرس

بسام حجّار

الوقت لا ينقضي

على مدى سنوات، ترجم بسّام حجّار عدداً من القصص، لعدد من أبرز كتّاب القصّة في العالم. وقد اختار عدداً من أجمل هذه القصص، ليضمها هذا الكتاب، الذي يقدّم، إضافة إلى متعة قراءة هذه الأعمال الجميلة، إطلالة على هذا النوع من الأدب عبر أبرز ممثليه.

ذات يوم من تلك الأيام أعطتني صورتها. أعطتنِي إياها: «خذ، هذه لك. أريد أن تبقيها لديك». فقلت في نبرةٍ بلهاء مُتكلّفة الرصانة: «وف أحفظها لك مدى العمر». إلا أنّ كلامي لم يضحكها. كان بريقٌ غريبٌ يلتمع في عينيها، بريق محموم. وأدرك الآن، حين أنظر إلى الصورة، أنها كانت تهبُ نفْسَها، من خلال الصورة، تهب نفسها هي.

ولذلك هي كلّ ما تبقّى لي منها.

المركز الثقافي العربي
ص ب ٥١٥٨/١١٣ بيروت- لبنان
ص.ب 4006 – الدار البيضاء – المغرب
www.ccaedition.com

ISBN 9953-68-186-4
9789953681863

لوحة الغلاف: إيفان جرالباك